# دراسات الاب لامانس عن مكة

# الأحابيش

## والنظام العسكري في مكة

## زمن الهجرة:القسم الاول

لم تكتف مكة . في الجاهلية . بكونها مدينة تجارية واسعة ينعم بها الرأسماليون والمرابون، بل كانت، فضلا عن ذلك، مركزاً دينياً يؤمه . في المواسم . كثير من القبائل العربية. إلا أن مكانها من الحرم كان يجلب إليها[1] عدداً كبيراً من شذاذ القفر الخارجين عن نطاق قبائلهم من أولئك (الخلعاء) و (الصعاليك) و (الفتّاك) و (المتشيطنة) و (اللصوص) و(الذؤبان)[2]. ولا يخفى أن تعدّد هذه الأسماء يكفي للدلالة على عدد أولئك الشذاذ، وعلى ما كان من ضعف في تنظيم

---

[1] اليعقوبي: تاريخه (Houtsma) ٢: ١٤-١٥؛ الأغاني ٢١: ٦٢، ٦٨.

[2] الواقدي: تاريخه (Kremer) ٥٨: الطبري ١: ١٤٣٨؛ الأغاني ٨: ٦٥، وقد سمي هؤلاء اللصوص ذؤبان؛ لأنهم يشبهون الذئاب (ابن الأثير: النهاية ٢: ٥٢)، وهناك (الربيل) أو (الرئبال) وهو اللص الذي يفتك وحده كالذئب (ابن الأثير: ٢: ٦٣)، ويذكر بين هؤلاء الذؤبان بعض الصحابة أو أصحاب النبي (أسد الغابة ٥: ١٧٨).

السلطة العربية القديمة، وقد أشرنا مراراً[1] إلى تلك الطبقة من الشذاذ الذين كانت قبائلهم (تخلعهم) رسمياً، (فتتبرأ من جرائرهم)[2] وتتخلص من تبعة أعمالهم.

من أهم صفات (الخليع) الجرأة والبطش، وأنه ليفوق فيهما أشهر أبطال العرب وأبعدهم صيتاً، من الذين كانوا يتحينون الفرص لإظهار شجاعتهم، ويراقبون الأحوال فيستغلون ظروفها في العمل على نشر مفاعيل سطوتهم وبطشهم؛ كما روي عن عنترة، وهو أوسع أبطال الجاهلية ذكراً، من أنه سُئل عن أسباب شهرته فقال: (كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً، وأُحجم إذا رأيت الإحجام حزماً، ولا أدخل موضعاً لا أرى لي منه مخرجاً)[3].

أما (الخليع) فإنه كان على نقيض هذا القول يندفع هاجماً فلا يبالي، ولا يفتش عن المخارج. فكان من تأثير هذه الصفات الجريئة أن الكثيرين من بني قريش، من أرباب الأموال، وأصحاب القوافل، لم ينفروا من تكاثر الشذاذ والخلعاء في أرض الحرم؛ لأنهم كانوا يرون فيهم زبائن ذوي أموال لم يبذلوا جهدا كبيرا في تحصيلها، فينفقونها بسهولة في حوانيت مكة. وكانوا يرون فيهم، فضلا عن ذلك، معاونين و (حلفاء)،

---

[1] أطلب كتابنا .Le Bercan de p Islam, I, 193-194

[2] الأغاني: ١٣ : ٢.

[3] الأغاني ٨: ١٥٢، وقول عنترة هذا يخالف قول عباس بن مرداس (أسد الغابة ٣: ١١٣):

أقاتل في الكتيبة، لا أبالي  أفيها كان حتفي أم سواها!

يستأجرونهم للمحافظة على قوافلهم الغنية في رحلاتهم البعيدة[1]. وكان لكل سيد من أسياد مكة جماعة من الشذاذ ينتمون إليه، ويختصون به، فهو (مأوى المطرد)[2]. بحسب قول الشعراء. وهم رجاله وحلفاؤه؛ فالبرّاد، وحاجز، وأبو الطمحان، والحرث بن ظالم يبذلون نفوسهم في سبيل الأمويين، والمخزوميين، والهاشميين[3]، ويلقون الرعب في أنحاء الجزيرة بذكر فتكاتهم وأهوالهم. وكذلك نرى أمراء غسان، وملوك الحيرة، وأقيال اليمن يعملون على أن يقرّبوا منهم أولئك الشذاذ فيحسنون صحبتهم، حتى إذا ما أرادوا تنفيذ خطة أو نصب مهلكة، قذفوا بهم فكانوا لهم خير عون. وقد رأينا عدداً من سادة القبائل، إذا ما احتاجوا إلى ذوي جراة وبطش، أتوا الحرم فاستأجروا من صادفوا فيه من (الصعاليك)[4].

وهي عادة عهدها أرباب السلطة منذ القدم. أو لم يستأجر أبيملك. بسبعين من الفضة. (رجالاً بطالين أشقياء)[5] فتبعوه في غزوته؟ أو لم يستأجر امرؤ القيس (أخلاطاً من شذاذ العرب)[6]، في طلبه بثأر أبيه!.

---

[1] راجع Berceau, I, 334 الأزرقي، ٤٦٣؛ الواقدي ٣٠.

[2] زهير (Ahlwardt) ٣٤: ٣؛ الأغاني ١٠: ٢٨، ٢٣.

[3] الأغاني ١٢: ٤٩؛ ١٩: ٧٦.

[4] الأغاني ٢١: ٦٣، ٦٨.

[5] سفر القضاة ٩: ٤.

[6] الأغاني ٨: ٦٨-٧٠، وفيه (ص ٧٣) ذكر (الذؤبان من قيس).

إذا ما دقق الدارس في أخبار مكة في العصر الجاهلي ثبت لديه ما كان يقوم به القرشيون من محاولات في سبيل توسيع تلك المنطقة الممتازة الواقعة تحت شعار العاطفة الدينية، المعروفة بالحرم؛ وذلك أن هذا الامتياز الديني كان يضمن لهم . في الغالب . سلامة أرزاقهم، وكان يضع حوانيتهم وبيوت أموالهم على مسافة بعيدة عن جيرانهم من ذوي المطامع الجريئة التي كانت تدفعهم أحياناً إلى غزو منطقة الحرم نفسها فينهبون حتى الكعبة[1]. كان أولئك البدو شر سكان تهامة يرودون حول الحرم، كما كانت قريش نفسها قبل أن ترتقي إلى مركزها الحالي، ترود حول تلك المنطقة، فتؤجر دوابها، وتسير في خدمة القوافل هادية محافظة، هذا إذا لم ترابط متسترةً في غوري تهامة، منتظرةً مرور القوافل فتهجم عليها وتنهبها. لقد طال عهدها بحياة التشرد هذه، فمرن أربابها على الاحتيال والنهب، حتى أهاب بهم سيد جريء هو قُصي، فأخرجهم من فوضاهم، وأدخلهم في قلب مكة فأقامهم فيها أسياداً.

لم يكن عهد قريش ببعيد عن هذه الحياة. إلا أن سادة البطحاء، وأصحاب المصارف الكبرى، وأرباب المضاربات المالية، كانوا ينفرون من تلك الذكريات، دون أن يهملوا الحذر ممن حلَّ محلهم في مرتفعات تهامة المجدبة، ولا سيما بنو غفار[2] المتصلون مثلهم بجذع كنانة. ولم نذكر غفاراً . بين القبائل الضاربة حول الحرم . إلا لأنها تمثل خاصة تلك

---

[1] الأغاني ٨: ١٨٩.

[2] الأغاني ١١: ٤٧.

الطوائف الفقيرة الجريئة التي كانت تحتال على الحياة، في جوار مكة[1]، بجميع الطرق المشروعة وغير المشروعة.

ولم تكن غفار وحدها في تلك المنطقة، بل هناك قبيلة بني أسلم[2] ،وهي لا تقل عن الأولى في شيء من الخبث، والدهاء، وعدم التحرّج. وكثيراً ما جمعها أصحاب كتب (الصحيح)، بل أن النبي نفسه جمعها في دعائه[3].

وبنو اسلم يمثلون في قبيلة خزاعة ما يمثله بنو غفار في قبيلة كنانة المنافسة على فرق أن الخزاعيين تقربوا من النبي. منذ أول عهده. نكاية بالقرشيين منافسيهم وحلفائهم في مكة[4]، ولهذا رأينا أن نذكر منذ الآن غفاراً واسلم ،على ما بينهما من عداوة أصلية[5]، ذلك أن قريش اعتادت أن تختار من هاتين القبيلتين ضباطاً لعسكرها المأجور المعروف باسم (الاحابيش).

على أن هذه العلاقات بقريش ما كانت تمنع أفراد القبيلتين عن متابعة مفاسدهم فنراهم ينهبون، ويقتلون من يستفردونه من أهل مكة،

---

(1) وقد ذكر بعض الغفاريين في أرض المدينة (الأغاني ٤: ٢٠)، وهناك أحد صغارهم يرشق نخل الأنصار (ابو داود: السنن (طبعة الهند) ١/ ٢٢٤؛ الذهبي: الميزان ١: ٤٥٥).

(2) الأغاني ٢١ :٦٨.

(3) الترمذي: الصحيح (طبعة الهند) ٣: ٢٣٤، الطبري: ١: ١٦١٩.

(4) لقد انتزع قصي الرئاسة من خزاعة، على أنه لم يطردهم من أرض الحرم.

(5) حسان بن ثابت: ديوانه ١٦٠: ٩ يذكر معاً غفاراً وأسلم.

دون أن يستثنوا المسلمين أنفسهم[1]، وهي مآتٍ قد تمتاز بها غفار على أسلم.

أما الأوتار بين أفراد القبيلتين، بدواً وحضراً، فكانت دائمة كلما انقضى وِتر منها تجدد آخر[2]. وكان الغفاريون مشهورين بالتلصص ونهب المسافرين حتى الحجاج منهم، فسموا (سرّاق الحجيج)[3]، يفعلون ذلك فلا يحترمون أرض الحرم ولا أشهُره. وكانوا ينزلون منطقة بدر[4] وأرض فُرع[5]، فيجتمعون شذاذاً من السراق والفتاك[6]، يعرقلون سير القوافل، ويفسدون على تجار مكة آمالهم ومساعيهم.

وقد ظل البرّاد مثالاً أعلى لأولئك الخلعاء الغفاريين، يقوم بمغامراته خفيةً ثم ينشرها في أنحاء الجزيرة بكل ما تقتضيه شروط التمثيل المسرحي من ظهور وافتخار. حتى ضج القرشيون من أعماله فاستلحقه بنو أمية وجعلوه حليفاً لهم، وأنزلوه مكة، بيد أنه لم يفارق ما شبّ عليه من أعمال النهب والسلب، فعاد القرشيون إلى التذمر منه. فترك المدينة دون أن يترك خلف الأمويين. ثم علقت الأسطورة بمغامراته وما اتصفت به من جرأة وحيلة وبطش، فتوسعت فيها،

---

(1) الواقدي ٣١؛ ابن هشام: سيرة الرسول ٤٣١؛ أسد الغابة ٢: ٢٢٥.

(2) ابن هشام: السيرة ٤٣١.

(3) الطبري ١: ١٦٢٠، ١٦٥٠؛ الأغاني ١٦: ٦٣؛ ابن هشام: السيرة ٨٠٣؛ أسد الغابة ٣: ١٥٠.

(4) السمهودي: وفاء الوفاء ٣: ٢٥٩.

(5) السمهودي: وفاء الوفاء ٢: ٣٩٠.

(6) مسلم: الصحيح ٣: ٢٦٧- ٢٦٨؛ ابن سعد: الطبقات ٤: ١٦١، ١٦٢، ١٦٤.

وولدت منها آثاراً أُضيفت في ما بعد إلى المجاميع الأدبية المختصة (باللصوص)[1].

وإذا ذكرنا بني غفار وبني أسلم فإننا لا ننفي وجود الخلعاء في سائر القبائل والبطون. فلكل قبيلة، شريفة كانت أو حقيرة، لصوصها وخلعاؤها، تدفعهم فطرتهم الفوضوية إلى الخروج عن الأنظمة والشرائع. حتى أنه ليصعب علينا، إذا ما دققنا البحث في حياة كبار السادة أنفسهم كحاتم طيء، وعروة بن الورد، وتوبة بن الحُمير، أن نميز في شخصياتهم أخلاق الفارس الكريم من صفات اللص الصعلوك؛ كما أنه يصعب علينا أن نفصل. في تلك الحروب العربية. بين الغزوة المشروعة في نظر البدو، والسرقة البسيطة.

ولم يكن هذا الجمع بين صفات الفروسية ومظاهر الصعلكة ليجحف بحق أولئك السادة، أو يحط من قدرهم في نظر السلف[2]، فإن شريعة القفر ما كانت لتصم هذه الأعمال بالوصمة الشائنة، بل جل ما كان ينال الصعلوك تعرّضه للخطر، وتعريضه قبيلته للثأر بعض الأحيان. أما ما سوى ذلك من عار أو احتقار فلا وجود له. وكثيراً ما كان الشعراء من أولئك الصعاليك يفتخرون . بكل إخلاص . بأنهم يموتون. كما عاشوا . على سُنة الإباء والشرف[3].

---

(1) الأغاني ١٩: ٧٥-٧٦؛ وأطلب ابن عبد ربه:العقد ٣: ١٩٣؛ ابن هشام: السيرة ١١٨-١١٩.

(2) Le Berceau ...I, 191 etc.

(3) الأغاني .11 :45 ,159 ,Berctau, I

ولم يرتفع صوت واحد منهم فيخرجون من غرورهم وادعائهم.
أما الفرق بين الغزوة والسرقة فهو أن الغزوة كانت شرطاً من شروط الحياة البدوية، بل هي صناعة وطنية في ذلك القفر[1]، لا يُلام عليها إلا إذا خرجت من كونها عمل الجمهور فانفرد بها واحد أو اثنان في سبيل منفعةٍ خاصة لا تهم القبيلة بمجملها، على أنه . حتى في هذه الحالة الخاصة . لم يكن البدو ليخفوا إعجابهم بأعمال الصعاليك الجريئة، ولا سيما بحيلهم الغريبة.

وكثيراً ما كان الصعاليك يتحدون فيؤلفون جمعية من اللصوص لا تقف في وجهها العقبات، كما نرى في بني غفار نفسها، وقد ساعدهم في أعمالهم هذه أن بلادهم كانت على ممر القبائل من مكة إلى الشام[2]، والأغرب أن سادة هذه القبيلة لم يفكروا بخلع هؤلاء الصعاليك[3]، حتى عُرفت قبيلتهم بهذا، ورأى بعض الشرّاح أنهم هم المقصودون بحملات القرآن على البدو في مثل الآية: (وممن حولكم من الأعراب منافقون)[4] ،فإذا صح هذا الشرح، كانت هذه الآيات ترقى إلى عهد

---

[1] Berceau, I, 177.

[2] أسد الغابة ٥: ١٨٧؛ وفيها أن غفاراً كانت تنزل في عرج، متوسط الطريق بين مكة والمدينة (٥: ١٤٣)، وفي الكتاب نفسه أن بني أسلم كانوا ينزلون ذاك المنزل (٥: ١٤٢).

[3] بل قد يفتخرون بهم كما قالوا، وقد رأوا رجلاً مجهولاً لا يحترم الكعبة: (ما اخلق أن يكون من بني بكر) (أسد الغابة ٣: ١٥٠) أما التسمية ببني بكر فإن غفاراً كثيراً ما دُعيت (بكر بن عبد مناة).

[4] القرآن ٩: ١٠٣؛ راجع الواحدي: أسباب النزول ١٩٤؛ الطبري ١: ١٦١٩؛ ابن هشام: السيرة ٨٩٦، ٩٣٧.

كانت عليه غفار لا تزال على حلف قُريش تخدمها في صفوف الأحابيش. ولكن لم يكن العهد بعيداً بيوم يُغدق فيه النبي الدعوات والبركات عليها، وعلى منافستها قبيلة بني أسلم.وأننا نفهم الآن لماذا كان يتردد الغفاريون في ذكر نسبهم أمام أهل مكة، وقد سبق أن آذوهم بنهب أموالهم. وقد كان يجتنب ذكر هذا النسب حتى من يقبل على الإسلام من الغفاريين، وكأنهم يستحيون من ذكره أمام النبي نفسه، كما حصل لأبي ذر عندما التحق بالنبي، فقال بعد ذلك: (كره أني انتميت إلى غفار)[1]، وكان أبو ذر. أول أمره. من أولئك الصعاليك.

ثم قدسه الإسلام، واتخذته الشيعة خاصة من أوليائها[2]. بيد أن الغفاريين أدوا خدمات جليلة للنبي، فوجب على كتب الحديث أن تدوّن مناقبهم[3]. وقد اكتفى النبي. في عقابهم على سيئاتهم العديدة. بأن أظهر أسفه[4]، طالباً من الله أن يعفوا عن هذه السيئات، مستنداً إلى الاشتقاق البياني مقابلاً بين اسم القبيلة (وفعل الغفران، قائلاً: (غفار

---

[1] ابن حنبل: المسند ٥: ١٧٥.

[2] ابن سعد: الطبقات٦: ١٦٢؛ اسد الغابة ٥: ١٨٧-١٨٨؛ مطهر المقدسي (Huart) ٥: ٩٣.

[3] مسلم: الكتاب المذكور آنفا في الموضع المذكور آنفا؛ ابن حنبل: المسند ٣: ٣٣٠، ٣٦٩، ٤٢٠، ٤: ٥٥، ٥٧؛ الدارمي: المسند (مخطوطة ليدن) ٣١٣-٣١٤؛ البغاوي: المصابيح ٢: ١٩١-١٩٢؛ الترمذي: الصحيح (طبعة الهند) ٣: ٢٣٣-٢٣٤؛ ابن الديبع: تيسير الأصول ٣: ١٠٩؛ وقابل بما ورد في السيوطي: موضوعات ١: ٧٥.

[4] ابن سعد: الطبقات ٤: ١٦٤؛ ويدعى بنو غفار (بكر بن عبد مناة) كما قدمنا، الأغاني ١٩: ٧٤-٧٦.

غفرها الله)[1] ولا يخفى أن حاجته إلى من يتكل عليهم في مقاومة أعدائه دعت به إلى التسامح، والتجاوز عن مساوىء رجاله[2]، فضلاً عن كون الإسلام (يجب ما كان قبله) أي يمحو ما تقدمه من السيئات[3]، فعمل على استجلاب شذاذ الغفاريين،عاهداً إليهم بقيادة الغزوات المخطرة، تلك التي كان يخشى من السير فيها بعض الصحابة من قريش[4]. ذلك أن النبي - وهو القرشي - لم يكن لينسى شجاعة هؤلاء الشذاذ وتفوقهم الحربي على المهاجرين من التجار والسماسرة الذين اقتلعتهم الهجرة من حوانيتهم ومصارفهم في مكة. وفي أثناء تغيباته عن المدينة، كان يعهد للغفاريين أيضاً[5] بالسهر على نظام العاصمة الجديدة، أو في غير ذلك من الشؤون. حتى كان منهم أحد خدمه[6] على أنه لم يكن يهمل مراقبتهم والحذر منهم أحياناً[7].

---

[1] اسد الغابة ٣: ١٧٨، ٣٩٨.. مسلم: الصحيح ١: ٣٥٤، ابن الأثير: النهاية ٣: ١٦٥؛ ٤: ٣٣٢.

[2] أطلب بحثنا في Ziad ibn Abthi, 3 في Mo'awia؛ وابن حنبل: المسند ٤: ٧٤.

[3] أسد الغابة: ٥: ٥٤، ابن هشام: السيرة ٧١٧-٧١٨.

[4] الطبري ١: ١٥٧٥.

[5] ابن سعد: الطبقات ٣: ٤٤، ٧٧، ٨٧، وذلك لأنهم، وهم من كنانة، كانوا أبعد من أن يتحدوا مع العناصر الوطنية أو تلك العناصر المضطربة المتذبذبة في المدينة، قابل بها في أسد الغابة ٤: ٢٥٠؛ وقد ذكر ابو ذر بين أولئك الغفاريين (الطبري ١: ١٦٣٧)؛ ابن هشام: السيرة ٥٤٠، ٦٦٢، ٦٦٨، ٧٣٥، ٩٠٥، ٩٦٦.

[6] أسد الغابة ٥: ٧٧.

[7] قابل بها في أسد الغابة ٤: ١٣٧؛ وفي مصدر آخر أن بعض الغفاريين حضروا يوم بدر حضور الشاهدين المنتظرين نهاية العراك ليسلبوا المغلوبين (أسد الغابة ٥: ٢٦٠) على أن

أما وقد تحققنا صفات الغفاريين هذه، فسهل علينا أن نفهم رغبة أهل مكة في جذبهم إلى حلفهم، وإسراعهم إلى الاحتفاظ بهؤلاء الجيران المندفعين إلى النهب[1]، المضطرمين رغبة في الإفساد، حتى أنهم كثيراً ما أزعجوا القائمين بسوط عكاظ[2].فوجب من ثم أن يعمل القرشيون على صرف هذا النشاط وتسيير تلك القوة إلى ما فيه مصلحتهم والدفاع عن منافعهم السياسية والتجارية.وهكذا نشأت فكرة استخدام أولئك البدو . بدو تهامة . سواء أكانوا ينتمون إلى كنانة أم إلى خزاعة. فجعل القرشيون يختارون منهم عدداً من العسكر المأجور ألّف النواة الأولى، أو الضباط الموظفين أو (أركان الحرب) . كما نقول اليوم . في ذاك الجيش من (الأحابيش) المتصف بالشهرة الواسعة في (المغازي)، أو حروب محمد. ولما تم ملاك الجيش الخارجي بأولئك البدو المأجورين، عمد بنو قريش إلى تعبئة أقسامه بعدد من الأفريقيين النازلين مكة[3].وقد كان من تقاليد العرب أن يستخدموا . عند الحاجة . من كان يرتزق في بلادهم من الأفارقة عبيداً كانوا أم فعلة ومهنة، وذلك لما عُرف من شجاعتهم، وجلدهم، وطاعتهم، حتى أن سادة القبائل الحجازية، و (ملوك

---

غيرهم من العبيد الغفاريين كانوا يحاربون مع النبي في بدر (أسد الغابة ٤: ٣٣٨؛ ابن الأثير: النهاية ٣: ٩٦).

[1] جاء في أسد الغابة (٣: ١٩) أن أخت أبي سفيان كانت زوج لسيد غفاري من حلفاء قريش.

[2] الأغاني ١٩ : ٧٤؛ العقد ٣: ٩١، وأن العشرة الأميال المذكورة في الصفحة ٩٣، السطر الأول، لا تمثل المسافة بين عكاظ والطائف، كما يتوهم المؤلف، بل هي طول سوق عكاظ.

[3] الأغاني: ١: ٥٢؛ الطبري ١: ١٦٣٠.

العرب)، كانوا يؤلفون من أولئك الأحباش حرسهم الخاص، وهذا ابن سعد يذكر عن احد سادة هذيل إنه كان (يمشي وراءه الأحابيش)[١].وليس من شك في أن هؤلاء (الأحابيش) من سودان أفريقية، لا من العرب أحلاف بني قريش. وهذا صاحب الأغاني يذكر أن الملك سيف بن ذي يزن قد استخدم في جيشه رجال ابرهة، بعد تلك الغزوة الاكسومية التاعسة[٢].

ومهما يكن من خطر في اتخاذ هؤلاء العساكر، فإن خبراء العرب بالشؤون الحربية كانوا يفضلون السودان . لحسن طاعتهم[٣]. على رجال البدو النافرين من كل نظام، الرافضين الحرب إلا إذا كانت منفعة قبيلتهم الخاصة تدعو إليها.وفي عصرنا هذا لا يزال أفراد الجيش . في حضر موت . من المستعبدين[٤].وإذا فقد كان أبناء جبال الحبشة، قبيل الهجرة، رجال الجيش وأفراد الشرطة في بلاد العرب. ولم تكن من صفاتهم الغالبة الأمانة والإخلاص، بل قد يرتدون على ساداتهم ويقتلونهم[٥]. على أنهم كانوا يتصفون بالشجاعة الجريئة، والهزء بالخطر، والخضوع للنظام، وهي صفات اختص بها عنصرهم على مر

---

[١] ابن سعد: الطبقات ٢: ٣٦.

[٢] الأغاني (طبعة صالحاني) ٢: ٥٣؛ وقابل بالاغاني ١١: ١٣٢، ١٦: ٧٥؛ الجاحظ: البخلاء؛ ٢٤٩ .H.Grimme, Mohammed (1904) p. 7, 249

[٣] الجاحظ: رسائله الثلاث (طبعة Van Vloten) ٦٥-٦٦.

[4] Snouck Hurgronje dans zeitschr, f, Assyr, XXVI, 223, 236, N. 3.

[٥] الأغاني ١٦: ٧٥؛ أسد الغابة ٥: ٥٣٠.

الأجيال[1]، وكان من حق العرب أن يعجبوا بها وهي قليلة في ما بينهم. حتى غدا أشجع العرب، وأجراهم، وأفتكهم، أولئك الأبطال من ذوي الدم المختلط بالدم الحبشي أو السوداني[2]، الذين دعوا بحق (أغربة العرب) وكان أشهرهم عنترة بلا خلاف، وليس بعيداً أن يكون لبيد قد أشار إلى هذا الحرس الأفريقي في قوله:

......حُبشاً قياماً بالحراب وبالآلال[3]

ولابن ذئبة - أحد شعراء ثقيف من غير المشهورين - أبيات يشهد فيها بتذكار ما تركه في مخيلة ساكني جبل سراة والحجاز مرور الحبشيين ظافرين في سهول تهامة، وقد دخلوا بلاد اليمن وأخضعوها، قال[4]:

أبعد قبائل من حميـــــر أُبيدوا صباحاً، بذات العِبَرْ

---

[1] وقد استخدم علي بك الكبير هذه الصفات، فجيش في مصر أيالات من السودان راجع de vogue hist orientales, 177 وكذلك الكلام على الجيش المصري قبل محمد علي وبعده أطلب J.Maspero, organization de l'Egypte byzantine, 64.

[2] الجاحظ: رسالته ٦٥-٦٦، وكل رسالته الموسومة بـ (كتاب فخر السودان على البيضان) في المجموعة المذكورة آنفا، ص ٥٧؛ الأغاني ٧: ١٥٠، البلاذري: الأنساب Ahlwardt ٣٠٦-٣٠٧؛ ..Berceau, I, 192

[3] الجاحظ: الكتاب المذكور ٧٠.

[4] ابن هشام: السيرة ٣٧؛ الطبري ١: ٩٣٩ Noeldeke, perser- Araber, 194 وفيها يخص الشاعر ذا جدن يقول نولدكه (يظهر أن الشاعر يرى ما يراه الحديث التقليدي بالنثر)، قلت: ولا غرابة في الأمر فإن الحديث جرى هنا أيضاً على طريقته المعروفة، فاستقى معلوماته على الشعر، ولعلنا نتفوق يوماً إلى إقرار هذا المبدأ الأساس في نقد (السيرة) و (الحديث).

بألف ألوفٍ وحُرابـــةٍ | كمثل السماء قُبيل المَطَـرْ
يُصم صياحهم المقربات | ينفون من قاتلوا بالزفَـــرْ
سمالى كمثل عديد التراب | ييبس منهم رطاب الشجر

ولم يكن النبي. وقد أصبح أمير المدينة. ليخرج عن هذه العادة.

فكان عنده من (الأحابيش) بلال، وأخوه أبو رويحة[1]- وهي كنية بعيدة الدلالة - وكان بلال يمشي أمامه مستلاً سيفه. على أن

---

[1] أسد الغابة ٣:٨٧، وهناك أبو رويحة آخر، من العرب، وعد صاحب (أسد الغابة) (٣: ٢٠٠) بأن يتكلم عليه في باب (الكُنى) من المجلد الخامس، وقد قام بوعده فوق المقصود (٥: ١٩٥-١٩٦) إذ جعل من أبي رويحة الواحد رجلين اثنين تكلم عن كل منهما. على أن أحدهما مثل، دون شك، دوراً حربياً لا بأس به، فعهد ليه النبي في حمل الراية (٥: ١٩٦، ٤)، وفي المجلد الخامس نفسه من (أسد الغابة) بعض الصحابة أزدوج عددهم فولّد كل واحد منهم صحابيين، وذلك في الصفحات ٥٨، ٦٣، ٧٠، ٧٤، ٧٥، ٧٩، ٨٠، ٨٣، ٨٧-٨٨، ١١١، ١١٩، ١٢١، ١٢٥، ١٣٥-١٣٦، ١٦٤، ١٧٧؛ وكذلك في الجزء الثالث في الصفحات ٣٩٦، ٣٠٨، ٣٢٢، ٣٤٦، ٣٦٣، ٣٩٧، ٤٠٤، ٤١٢، ٤١٧... بل هناك من الصحابة من تثلث عددهم فولّد الواحد ثلاثة صحابيين كما نرى في المجلد الثالث ص ٣٠٣، ٣٩٧؛ والمجلد الخامس، ص ١٤٨، على أن ابن الأثير شعر بشيء من هذه الازدواجات والتعدّدات، فشك في حقيقتها، أو أشار إليها صارحة كما في ٣: ٢٤، ٢٥، ٢٩-٣٠، ٣٥، ٤٥-٤٦، ٥٧-٥٨، ٩٢-٩٣، ٩٤-٩٩- ١٠٠، ١١٧، ١١٩، ١٣٠، ١٣٥، ١٤٦، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٣، ١٨١، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٩٥، ٣٨٨، ١٨٩، فقال إن الالتباس بين (الاب) و (الابن) عمل على تكثير الصحابة ٣: ١٦٥، ٣٨٨، وفي هذه الصفحة ذكر لصحابي وهيم لم يوجد. وفي ٥: ٥٠-٥١، ذكر لصحابي من الجن...

الأخوين لم يكونا الوحيدين من بني جلدتهما في بلاط يثرب. فقد أشار المحدثون إلى وجود غيرهما من الحبش في حاشية النبي، حتى أنهم ذكروا من هؤلاء أخا النجاشي نفسه[1] وقد اهتمت (السيرة) ببلال اهتماماً خاصاً، لأنها رأت فيه (سابق الحبشة) كما تسميه تراجم الصحابيين[2]، أي السابق من رجال الحبشة إلى الدين بالإسلام. ثم صار بلال، بعد ذلك، في نظر أرباب الحديث، مثالاً لجميع المؤذنين، أولئك الأشخاص ذوي المركز المتواضع في الجماعة الإسلامية وذوي الفائدة الجمة إذ يدعون المؤمنين إلى الصلاة. بيد أن هذه النزعة في أصحاب الحديث لإظهار بلال على هاتين الصورتين قد أهملت . دون شك . كثيراً من المعلومات عن بلال الحبشي، فأفسدت ما كان من الممكن أن نستخلصه عن دور بلال في حاشية النبي قائماً بما كان يقوم به أمثاله من الأحابيش في حاشيات سراة القوم من القرشيين. ولعلنا كنا توفقنا إلى وجود نظام (للأحابيش) في المدينة، كما وجدنا نظاماً لهم في مكة[3].

كان المكيون ينتخبون رجال شرطتهم من جمهور بدو تهامة، وعبدان أفريقية، فيؤلفون القوة العسكرية المدافعة عن تلك الجمهورية التجارية. وكان الغفاريون كثيراً ما يتولون قيادة تلك القوة فيكون

---

(1) راجع في ما تقدم أسد الغابة ٣: ٣٦؛ ٥: ٢٨٦، ابن حنبل: المسند ٤: ٩٠، أبو يوسف: الخراج ١١٩، وكتابنا في Futima, 66, 69 وقد ورد ذكر عدد من السودان في حرس بعض الأسر المكية الكبيرة (أسد الغابة ٤: ٢٥٣).

(2) أطلب ترجمته في أسد الغابة لابن الأثير، وفي الإصابة لابن حجر.

(3) قابل بما سنورده آنفامن أن النبي استقبل بحفاوة عدداً من سودان مكة. وهناك غيرهم من السودان كانوا يرافقونه مسلحين في غزواته (ابن سعد: الطبقات ٢: ٩٠).

الملاك أو أطار الجيش منهم، أما المادة فمن (الأحابيش)[١]. وليس في هذا الجيش المأجور من العناصر الوطنية المكية ما يستحق الذكر. ذلك أن قريش كانت قبيلة قليلة العدد حتى أنها لم تكن لتحتل منطقة الحرم بكاملها. فكانت كلها تنزل وادي الكعبة الضيق[٢] ولا نرى أن عدد القرشيين أزداد منذ أن ترك أجدادهم حياة البداوة، فتحضروا في مكة، بل أننا، لولا من كانوا يستلحقونهم بهم من الحلفاء، لتحققنا نقص عددهم الأصلي. ولا يخفى أن مرافق الحياة في ذاك الوادي، وادي الغور، الضيق المعرّض دائماً للفح السموم، الخالي من الماء، ومن الهواء اللطيف، ومن الشجر – حتى نعته القرآن بأنه (غير ذي زرع)[٣]- كانت أبعد من أن تسهل النموّ الطبيعي في حياة شعب حضري.

ولهذا لم يوافق نمو القبيلة ازدهارها الاقتصادي العجيب، فكان بعض كبارها يتذمرون من مناخ مكة، فيقولون ما قاله صفوان بن أمية وزملاؤه من رجال (الملا) أو مجلس الشورى القرشي: (ليس لنا بها مقام)[٤] هذا على الرغم من أنهم كانوا يتمتعون بالراحة المستطيلة مدة

---

[١] في الأغاني ١٩: ٧٦ ذكر لأحد الغفاريين سيد الأحابيش، وإني أميل إلى الرأي بأن الغفاريين الذين قادوا رجال النبي في المدينة، كانوا أولاً من سادة أحابيش مكة.

[٢] قابل بما في ابن هشام: السيرة ٧٣، وهو يشرح اسم (بكة) بما كان فيها من الازدحام.

[٣] (وادٍ غير ذي زرع) القرآن ١٤: ٤٠، وقد طلب القرشيون آيةً على صحة نبوة محمد أن يوجد لهم نخيلاً وجنائن (القرآن ١٧: ٩٣؛ وراجع أسد الغابة ٣: ١١٨) وأطلب شهادة القديس يوحنا الدمشقي الواردة في Zeitschr.gur Assyriol, XXVI, 182.

[٤] الواقدي ١٩٦.

الصيف في قصورهم البهجة في الطائف[1] وجبل سراة.وعليه فقد اضطرت مكة إلى استخدام المأجورين في سبيل المحافظة على الأمن الداخلي، والدفاع عن منافعها التجارية، وأن تعرّضت أحياناً إلى مخاطر سياسية كانت تتخلص منها بالدهاء والحيلة. وفضلاً عن ذلك، فإن أولئك المأجورين من الشذاذ والفتاك والخلعاء واللصوص والأحابيش اللاجئين إلى ضواحي مكة أو (الظواهر) كانوا يفوقون بها لا يُقاس رجال قريش، (قريش البطحاء) أو (قريش الوادي) أي سكان وسط المدينة من السراة، رباطة جأش، وشجاعةً، وجرأةً. ولنا شاهد في يوم بدر، وقد انتصر فلاحو المدينة على القرشيين على الرغم من الزيادة في عدد هؤلاء، والتفوق في تسلحهم، وذلك لأن القرشيين لم ينتظروا تنظيم الأحابيش.يدفعنا كل ما تقدم، وما سيلي، إلى الإقرار بأن البدو لم يكونوا يعدّون في شيء شجاعة القرشيين، ولم يشأ شعراء الجاهلية أن نجهل ذلك، وهو رأي جدير بأن نقف قليلاً لنفهمه، وقد يكون منه فائدة في تمحيص تلك الأساطير المتعددة التي حاكتها المخيلات حول أبطال (المغازي)، إذا توفقنا يوماً إلى درس القسم الحربي في سيرة الرسول[2].

وقد أثار هذا المشكل أحد مترجمي النبي من الأوربيين، في سيرةٍ كتبها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر؛ وجرّب أن يحلّه بشرحٍ رأينا أن نورده على طوله، قال: (قد يبدو غريباً أن يكون العرب، ولاسيما المكيين منهم، الغارقين بالشؤون التجارية، قد ظهروا دائماً على قسطٍ من

[1] راجع كتابنا في Taif a la veille de l'hegire, chap III, 45, aqq.

[2] أطلب الجزء الثاني من طبقات ابن سعد، وهو مختص بالمغازي.

الشجاعة والميل إلى الحرب. ولا يخفى أن شعباً دائم الاهتمام بكنز الأموال لجديرٌ بأن يعرض عن ذاك المجد الذي يوليه الرأي العام حملة الأسلحة. ولكن التجارة في بلاد العرب كانت مرتبطة بمهنة الحرب. كان لابد من اجتياز المفازات المقفرة... يعيث فيها الشذاذ فينهبون المسافرين... فوجب الاستعداد الدائم للهجوم أو للدفاع، لنهب القوافل أو للمحافظة عليها. وهكذا غدت حياة العرب حالةً حرب دائمة، فألفوا المخاطر، وكان لهم ما يعزز شجاعتهم القومية)[١].هذا ما حاول تورين أن يشرح به تلك الشجاعة المنسوبة للمكيين. وهو يظهر طبيعياً لأول وهلة، حتى أننا لا نكاد نتردّد في إثباته لو لم يكن هناك، قبل تأليف (السيرة) وخارجاً عنها، تقليد أدبي شعري يناقض هذه النظرية المتأخرة المنشأ. وقد كنا تجرأنا على الشك في صحة هذه النظرية، إذ عرضنا لتلك الأعمال البطولية الجبارة المنسوبة لعلي بن أبي طالب، ولحمزة[٢].فرد علينا المرحوم كليمان هوار قائلاً: (إن أولئك العرب كلهم، حضراً كانوا أو بدواً، كانوا يولدون رجال حرب)[٣] والحال أن هؤلاء البدو أنفسهم يعلنون، بلسان منشديهم وشعرائهم، إعراضهم عن تلك الأناشيد المأتمية التي تُردّد على قبور الأبطال، ونفورهم من أن يكونوا في تلك القبور؛ ذلك أنه مهما تبالغ النساء في الندب والبكاء، ومهما يردّدن (لا تبعد!) فإن تلك الأناشيد لا (تعيد البطل إلى

---

(1) Turpin, Histoire de la vie de Mahomet, paris, 1773, I, 303-305.

(٢) راجع كتابنا .Fatima, 29, Bcrceau, I, 191..., 332-334

(3)Jouru, Asiat, 1913, 216.وهي حجة تورين المذكورة آنفاً

الحياة)[1].أما قبيلة قريش الحضرية فقد اهتمت اهتماما كبيرا بأن تؤيد شهرتها، فتحمي نفسها بعدد من الأقوال والوصايا منسوبة للنبي[2] ويراها المطالع مبسوطة في كتب (الصحيح)، و(السنن) وكلها تنطق بيقظة الخلافة العباسية، وغيرتها على حفظ هذه الشهرة السائرة. وأن يكن قد وصل إلينا شيء من الشعر البدوي القديم يناقض هذه الشهرة[3]، فلا شك في أن ذلك من نتائج الصدفة التي أبعدته عن عيون المراقبة العباسية. فعرفنا، بالإستناد إلى هذا القليل من الشعر، إن البدو كانوا ينظرون إلى قريش غير نظرة جمّاع الأحاديث. كانوا يرون في قريش تجاراً لا همَّ لهم إلا جمع المال والإكثار من الأرباح، وهم ما عدا ذلك، جبناء لا يجرأون على تسيير قوافلهم إلا إذا دفعوا لبعض سادة القفر مبلغاً من المال في سبيل خفارة تلك القوافل[4]، فتسير آمنةً (بما فيها من الحُماة والخفراء)[5] ثم أن البدو كانوا ينفرون من الإقامة بمكة، لأنها كانت تمثل لهم مكاناً لا راحة فيه.

---

[1] أطلب في ذلك Rhodokanakis, Al- Hansd' und ibre Trancrlieder, 58.

[2] راجع مثلاً: ابن الديبع، تيسير الوصول ٣: ١٠٨-١١٠؛ ابن سعد: الطبقات ١: ٢.

[3] كذلك الشعر الذي حذفه ابن هشام، عندما أعاد النظر في (السيرة) ص ٥٧٣.

[4] وهو أمر لابد منه. أطلب العقد ٣: ٩١؛ الأغاني ١٩: ٥٧- حتى أن محمداً يذكر من العجائب أنه يأتي يوم تسير فيه المرأة بلا خفير، أسد الغابة ٣: ٢٩٣.

[5] الجاحظ: رسائله ٦٦؛ العقد ٢: ٨٠- واطلب، في شجاعة المكيين، الأسانيد العديدة التي يوردها Snouck hurgronje, Mekka, I, 31-32 حتى أن القرشيين تركوا الغزو لما كان يعرّضهم له من السرقة والغصب.. السيرة الحلبية ١: ٣٣٣.

ولا مرتع للعين، أو متقنص ولكن تجرأ، والتجارة تحقر[1]

وهم يفتخرون أحياناً بأنهم يفلقون جماجم أولئك التجار، ويشقون زقاق خمورهم، فينتقمون لأنفسهم أو لذويهم، وقد أجحف القرشيون بحقهم، في تلك الأيام العصيبة التي كانوا يلجأون بها إلى مكة فيقفون على أبواب المصارف القرشية يطلبون قليلاً من المال على سبيل القرض[2] فكان لابد من أخذ الثأر، ومن أن ينتصر البدو لأنفسهم من أولئك التجار الذين اهانوهم فآلموا كبرياءهم، ولهذا كانوا ينتظرونهم خارج مكة، فيهاجمونهم على رغم ما كان يعلقه القرشيون على أنفسهم من لحا الشجر ليموهوا على الناس أنهم حجاج فلا يتعرضوا لهم ذلك ما نستنتجه من قول الشاعر معاوية بن أوس، وهو جاهلي:

وزقٍ سبأت لذي متجرٍ أسيود كالرجل الاسحم

ضربت بغيه على نحره وقائمه كيد الأجذم

إلى التاجر العربي الشحيح أو خمر ذي النُطف الطمطم[3]

ومن شرح الجاحظ (أراد بهذا كله قريش. يقول هم تجار، وقد اعتصموا بالبيت، وإذا خرجوا علقوا عليهم المقل ولحا الشجر حتى

---

[1] الجاحظ: رسائله ٦٣، ويقول الطبري في تفسيره ٣٠: ١٧٣، عارضاً للسورة ١٠٦ من القرآن، إن البدو كانوا لا يتعرضون لقوافل قريش. وهذا من تأثير تلك النظرية الرسمية الرامية إلى إقرار السيادة القرشية حتى في العصر الجاهلي...

[2] راجع كتابنا La Mecque a la veille de l'hegire.

[3] الجاحظ: رسائله ٦٣؛ البكري: المعجم ٦٩٩، الأزرقي ١٥٥، ٤٨٩.

يعرفوا فلا يقتلهم أحد)[1]. وكان البدو. إذا اكتشفوا هذه الحيلة. تزداد نقمتهم على أكلة (السخينة) والسخينة نوع من الطعام يُتخذ من الدقيق ويؤكل في شدة الدهر وغلاء السعر، وكانت قريش تأكله فعيبت به وهجيت[2]، حتى لُقبت (بالسخينة) قال خداش بن زهير:

يا شدة ما شددنا، غير كاذبةٍ على سخينة، لولا الليل والحزم

وقال عبد الله بن همام:

إذا لضربتهم حتى يعودوا لمكة يلعقون بها السخينـــــا[3]

وإننا لنسمع صدى هذا اللقب. خمسين سنة بعد الهجرة. في أهجية مرة للنجاشي لذع فيها القرشيين، حتى أن ابن قتيبة، المتعصب للعروبة زمن العباسيين، لم يغفر له هذه الجرأة، فقال عند ذكره: (هجا قريشاً لعنه الله!)[4]، أما الأبيات فمنها:

سخينة حيّ يعرف الناس لؤمها قديماً، ولم تُعرف بمجدٍ ولا كرمُ

فيا ضيعة الدنيا، وضيعة أهلها إذا ولي الملك التنابلة القـــدم

---

[1] الجاحظ: ك.م. ٦٣.

[2] أطلب المصادر في كتابنا Yazid, 45, n3 ابن هشام: السيرة: ٧٠٥؛ ابن الأثير: النهاية ١: ٦، ١٥٢-١٥٣، ١٩٤.

[3] الجاحظ: البخلاء Van Vloten ٣٥٨.

[4] ابن قتيبة: الشعر والشعراء (de Goeje) ١٩٠- أما في شأن عصبية ابن قتيبة للعرب وسيادة قريش فلتراجع رسالته المعنونة (كتاب العرب) المطبوعة في (رسائل البلغاء) الطبعة الثانية، نشر محمد كرد علي. ويبقى أن تثبت نسبة الكتاب لابن قتيبة.

هذا الهجاء المؤلم أذاعه الشاعر في عهد معاوية الأول، فدل على ما كان لا يزال وأقر في أذهان العرب من ازدراء قريش، على الرغم مما أتاه ذاك الخليفة الكبير، بشخصيته الجذابة وبانتصاراته السياسية، في تقريب العرب من الإقرار بسيادة قبيلتة. ومن ذاك العصر أيضاً أهجية أخرى للنجاشي في قريش منها هذا البيت الذي يفوق ما تقدم إيلاماً ولذعاً:

وحق لمن كان سخينة قومه إذا ذكر الأقوام، أن يتفنما[1]

وهناك أمر آخر كان يحط من شجاعة المكيين في نظر البدو، هو ما أشرنا إليه من تعوّد القرشيين في الجاهلية الالتجاء إلى مأجوري الأحابيش في الدفاع عنهم والمحاربة دونهم. وقد ذكر الرواة مقطعاً شعرياً مزدوج الفائدة لأنه يطلعنا على قدم هذه العادة في اتخاذ (الأحابيش) دالاً على أنها ليست من الطرق التي لجأ إليها القرشيون مرةً مفردة أو مراراً قليلة، في عصر قريب من الهجرة، كما يطلعنا على تلك العاطفة المتأصلة في سكان البادية تجاه هذا المظهر القرشي. ذكر صاحب الأغاني المقطع المذكور آنفا، وأشار إلى قدمه قائلاً: (هذا شعر هجوا به قديماً[2])، وهو:

فضحتم قريشاً بالفرار، وأنتم تمدون سودانا عظام المناكـب

فأما القتال، لا قتال لديكـم ولكن سيراً في عراض المواكب

---

[1] ابن قتيبة: الكتاب المذكور آنفا، ص١٩٠.

[2] الأغاني ١: ٢٠.

وإذاً فلم يبق من شك في أن المكيين كانوا يستأجرون (السودان) الأفارقة في حروبهم، سوداناً لا شك فيهم، (عظام المناكب)، ولا يخفى أن هذا الوصف ذو قيمة جليلة؛ لأنه يطلعنا على أبناء حام فيحول بيننا وبين ما قد يتوهمه البعض، إذ ينفون وجود السودان ويفترون (الأحابيش) بالعرب المسودة وجوههم بتأثير شمس الحجاز، أو المنسوبين إلى ما يتصوره اللغويون من وجود جبل اسمه الحبشي أو الحُبشي... مما سنعود إليه، هؤلاء سودان يختلفون، (بعرض المناكب)، عن العرب المسوّدة وجوههم في مناطق الغور.

ولكن من كان بالحقيقة أولئك (الأحابيش) الذين ذكرناهم مرّات في الصفحات السابقة؟ يحل ولهوسن المشكل بكل بساطة إذ يحكم، بإيجازه المعتاد، أنهم (حلفاء قريش السياسيون)[1]، وهو قول (السيرة) ترجمه إلى مدلوله العصري ولغته الألمانية. على أن لفظ الاسم، وما يثيره من تفكير بسكان الحبش، يحولان بيننا وبين الإيمان المطلق بالشرح التقليدي[2]، ولا يخفى أن اسم الجلس (حبش) يُجمع على (أُحبوش) و (أُحيوش) يجمع على (أحابيش)[3].

---

(1) Wellhausen, Reste arain, Heidentums, 86, n3.

(٢) قابل بما ذكره كفيا هوار في: Cl, Huart, Neuvelles recberches cur in heende de sihnan in fars, p3 فقال: (الأحابيش... لا يسعنا إلا أن نقارب بين هذا الاسم واسم الحبش).

(٣) ابن دريد: الاشتقاق ١١٩: تاج العروس ٤: ٢٩٢ Dozy, suppierent ويجمع أيضاً على (حبشان) الأغاني ٢: ٦٨، أما في قول ابن قيس الرقيات (ديوانه ص ١٧٩ البيت الأول): (رجال من الاحابيش) فإن النقطة تعني هنا البدو، وسنرى سبب ذلك في ما يأتي.

وكلتا اللفظتين تدل على السودان، على سكان حدود ارتيرية، وكانت تشير في أوائل القرن السابع خاصة إلى أولئك العساكر السودان المأجورين[1]. ذلك أن اقيال اليمن، على الرغم مما تناقلوه أباً عن جدّ من التذكارات المؤلمة عن احتلال الحبش بلادهم، كانوا يتخذون حرسهم من رجال الحبش، كما قدمنا. حتى أصبح الأمر شيئا معروفاً يتبعه الأمراء والسادة، وقد كان من الدوافع إليه نفور العرب من الخضوع للنظام العسكري فأصبح لكل بلاط في اليمن، مهما كان حقيراً، عدد من أولئك (الأحابيش) ذوي الحراب، يقومون بما كان يقوم به في أوربا الحرس السويسري. ولنا في شعر أبي الطمحان صورة حية لهذا الحرس الأسود؛ وأبو الطمحان من جملة الصعاليك الشعراء المخلوعين الذين عرفناهم بين اللاجئين إلى مكة، ولا شك في أنه خدم القرشيين خدمات جليلة حتى شرفوه برتبة (الحليف)[2] إلا أن ما يهمنا الآن شهادته القيمة بشأن (الأحابيش) قال:

ولو كنت في ريحان يحرس بابه      اراجيل احبوشٍ، واغضف آلفُ

[1] الأغاني ١٦: ١٣، ٧٥، الجاحظ: الكتاب المذكور آنفا ٧٠؛ ابن السكيت: تهذيب الألفاظ (طبعة شيخو) ٥٣ وهو يورد قول العجاج (أحبوش من الأنباط) وإذاً فهو غريب عن العنصر العربي. وفي غير ذلك (الأحابيش) = السودان كما في الجاحظ، الحيوان ٣: ١٦٧، وفيها يذكر خصيان من السودان فيقول: (فتيان من الأحابيش)، وراجع ابن حبير: رحلته ١٩٤، ابن بطوطة (١: ٢٧٨).

[2] كان حليفاً للزبير بن عبد المطلب الهاشمي، وهو رجل لا نعرف عنه شيئاً.

إذاً لا يئتني، حيث كنت منيتي   يحب بها هادٍ بأمري، قائــــف[1]

وإذاً فإن (أحابيش) السيرة والحديث يؤلفون هذا الحبيش الأسود، وتكون مكة قد حلت مشكلة تجنيد السودان[2] قبل أوربا المتمدنة بثلاثة عشر قرناً. فلا عجب أن صادفنا في جيش القرشيين فرقاً من هؤلاء السودان، ونحن لا نزال نسمع الكثير من شجاعتهم وأعمالهم حتى في عصر العباسيين، بعد أن نظم الجيش العربي في القرن الأول للهجرة[3]، بمساعي معاوية الكبير، وبفضل تجنيد عرب الشام الذين كانوا قد ألفوا.

---

[1] الاغاني ١١: ١٢٢؛ البحتري: الحماسة (طبعة شيخو) الرقم ٤٤٠، وراجع، بشأن ريمان القصر اليمني، الهمداني: صفة جزيرة العرب ٢٢٤، وبشأن أراجيل، وهو جمع رجال أو رجالة، ابن الأثير، النهاية: ٢: ٧٠، وبانت سعاد (طبعة Guidi) ١٩٦- وفي حماسة البحتري فصل كامل (الفصل الثالث والخمسون) لما يشبه بيتي أبي الطمحان في ذكر الموت وشموله وإدراكه الإنسان حيث كان، وما أشبه قول الشاعر العربي بمقطع ما لرب (Malherbe) على أن يبدل اللوفر بقصر ريمان، والحرس السويسري بالأحابيش:

Le pauvre en sa cabane, ou le ebaume le convre
Est mjet a ses lois
Et la garde qm veille anx barriers du louvre
New defend pomt ont rois

راجع، في ذلك، فؤاد أفرام البستاني: توارد الخواطر بين بعض أدباء العرب وغيرهم من أدباء الأجانب (المشرق ٢٧ [١٩٣٩] : ٦٠٢-٦٠٣).

[2] اطلب في هذا الموضوع L'armee noire dans la Remie des denx mondes, 15 Aoui 1912, p. 849-870.

[3] الجاحظ: رسائله ٧٠، ٧١؛ الازرقي: ١٩٤، وفيه ذكر لجنود من السودان في جيش الحجاج محاصراً مكة، البلاذري: أنساب الأشراف (مخطوطة) ص ٦٩٧ b، وهناك ذكر لشرطة من السودان في المدينة على عهد المروانيين، الأغاني ٢: ١١٢، ولحرس أسود في حاشية خالد القسري، ابن عساكر (طبعة بدران) ٣: ٤١٣.

نوعاً ما. النظام الروماني. وقد دفعت هذه الذكريات الجاحظ إلى تأليف رسالة ظريفة في (فخر السودان على البيضان)، يرخي فيها العنان لبلاغته وظرفه، فيدل على تفوق السودان في الحروب خاصة على البيضان، أي على العرب[1].

ولنعد إلى زمن الهجرة فنرى من مآتي (الأحابيش) فيه أن أهل مكة لما أسرعوا إلى موقعة بدر. لم ينتظروا تحبيش (أحابيشهم)، وكان ذلك، كما قدمنا، من هفوات زعمائهم أرباب المصارف الذين لم يتعودوا الحروب.

فكان أنهم اكتفوا ببعض الرجال من الحبش أنفسهم خرجوا (يتقاذفون بالحراب) كما يقول الواقدي[2]، ونحن نعرف أن الحراب سلاح الأحباش العادي[3].

ولا يخفى أن الحبش هنا لا تفيد العبيد، فإن المكيين كانوا أبعد من أن يسلموا عبيدهم السلاح وكذلك القول عن وحشي الأسود قاتل

---

[1] طبعت الرسالة في مجموعة من ثلاث رسائل: (مناقب الترك، فخر السودان على البيضان، التربيع والتدبير)، وقد اهتم بطبعها Van Vloten فظهرت بعد وفاته، سنة ١٩٠٣.

[2] الواقدي (Kremer) ٣٣.

[3] ابن هشام، السيرة ٥٨٣، الطبري ١: ١٣٨٥ في كلامه على وحشي: (بقذف بحربة له قذف الحبشة) السمهودي: الكتاب المذكور آنفا ١: ١٨٧، ١٨٩، وراجع بيت لبيد المذكور آنفاً، ص ١٠.

حمزة، وابن الأثير يعده (من سودان مكة)[1]، وقد كان دون شك من أولئك الجنود الذين ألفوا مهنة الحرب، وكان يستعمل الحربة كغيره من أبناء جلدته (وقلما الخطأ بها شيئاً) بحسب قول الواحدي[2]، وقد شاء ابن هشام[3] أن يخرج وحشياً من المعركة، بعد قتلة حمزة، ليوهم أن السودان لم يكونوا يحاربون كعسكر منظم، ولكن لا سند لقوله.

بل أننا نرى وحشياً يحارب حتى في عهد أبي بكر، فيشترك في حرب مسيلمة وليس لنا ما يدل على أنه كان وحيداً من أبناء جلدته، بل إننا لا نخطىء إذا عددنا كل الحبش الذين حاربوا في بعوث قريش، في بدر واحد، من أولئك (الأحابيش) النظاميين؛ فخالفنا بذلك أقوال مؤرخي المغازي، وكلهم يضنون على السودان بهذه الصفة، فلا يرون فيهم إلا عبيداً غايتهم الهاء سادتهم بألعاب السيف والترس، كما كانت تلهيهم بالغناء تلك الجواري اللواتي كان يشتريهن تجار قريش بالثمن الغالي.

حتى إن كتب الحديث تذكر لنا في المدينة بعض الحبشان يسلون عائشة لاعبين بالسيوف. أما نحن فيمكننا أن نرى في أولئك العبيد السود فوق ما يريد أن يراه أرباب الحديث، فلا نتراجع عن السؤال: أو لم يكن حبشان المدينة المذكورين من حرس النبي الأسود؟

---

[1] أطلب ترجمته في أسد الغابة ٥: ٨٣.

[2] الواحدي: أسباب النزول ٢١٥-٢١٦، وأطلب في مهارة الأحباش بالبراز واستعمال السيف والترس، صحيح مسلم ١: ٢٢٨، وصحيح البخاري ١: ١١٦- ١١٧، ٢: ٢.

[3] ابن هشام: السيرة ٥٦٤.

ولنتقدم في ذكر النصوص القديمة في الحبش والأحابيش. ذكرت السيرة إنه كان في معركة أحد (أحابيش وعبدان أهل مكة)[1] ،ولا يخفى أن واو العطف لا تفيد هنا التفرقة بل الشرح. فنتج أن (الأحابيش) المذكورين لا يمكن أن يكونوا إلا من أهل الحبش، وهو معنى (العُبدان) أيضاً. وذلك أن الأكثرية الساحقة من الرقيق في بلاد العرب الغربية كانت من السودان في هذا العهد. وقد مال بعض العلماء المسلمين إلى هذا الشرح منذ أقدم العصور.

فتخيلوا، في ما تخيلوه من شروح لاسم (الأحابيش)[2]، أن هؤلاء المحاربين سموا كذلك (لاسودادهم)[3].

كل هذا يدفعنا إلى الاستنتاج بأن الأحابيش كانوا من عنصر أفريقي، وكانوا يؤلفون كتائب سوداء في الجيش العربي، وما أشبهها بكتائب السودان في الجيوش الأوربية اليوم، بكتائب (العسكر) الاريتري في الجيش الإيطالي، وقد كثر الكلام بشأنها في يومنا هذا. يسمي الإيطاليون هؤلاء الجنود الأفريقيين (askari) من لفظ المفرد عسكري. ومن غرائب الاتفاق أن اللفظة نفسها:(عسكر)،(عساكر) كانت تدل، في عرف العرب الأقدمين، على المحاربين المأجورين،

---

[1] ابن هشام: السيرة ٥٦١-٥٦٢: الواقدي: ك.م. ٢٣١، ٢٧٨-٢٧٩، يذكر (عبيد قريش)، (من السودان) يحاربون في أحد، وبينهم وحشي، وصؤاب، وسنعود إلى ذكر هذا الأخير.

[2] ابن الأثير: النهاية ١: ١٩٦، واطلب ما يأتي من الشروح اللغوية للفظة.

[3] تاج العروس ٤: ٢٩٣.

بخلاف من كانوا يقاتلون في سبيل الذود عن قبيلتهم ومنازلهم. هذا ما يظهر من قول قيس بن الخطيم ـ الشاعر اليثربي ـ المتوفى قبل الهجرة بسنوات قلائل[1]. ولعله فكر، في قوله ذاك، باختلاط البدو والسودان اللاحقين بالجيش القرشي، ملمعاً إلى أن قومه آنف من أن يقبلوا معاونة (العسكر) المأجور؛ ولا نرانا مبالغين في استنتاجنا هذا، إذا ما انتبهنا لتلك المنافسة الدائمة بين المدينتين: مكة ويثرب!

بيد أن ما توصلنا إليه من نتائج بشأن المكيين واستعانتهم (بالأحابيش)، وبأصل هؤلاء ومركزهم من الجيش القرشي، لأبعد من أن يقربه التقليد الإسلامي المستند خاصة إلى حوادث (السيرة) و (المغازي) وكلها متأثرة بالرأي العام الإسلامي، على عهد العباسيين، من سيادة قريش، وشجاعتها، وتقدمها في كل شيء منذ العصر الجاهلي. ولا غرابة في الأمر، فإن ما ينسب إلى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص[2] وغيرهما من كبار القرشيين، قادة الفتوح العربية، لا يتفق وما ذكرناه من ميل قريش عن الحرب والكفاح إلى التجارة وتدبير الأموال، وما يتبع ذلك من تأصل الحذر والخوف الدافعين إلى الجبن.

---

[1] راجع ديوانه (Kowalski) ١٨ :٣.

[2] كان عمرو ـ قبل هجرته إلى يثرب ـ ينفق كل وقته في أعمال التجارة والمناقشات المالية والإدارية.

ولا يخفى أن هذه الصفات تلقي ظلاً من الشك يخفف من لمعان تلك المآثر الأسطورية المنسوبة إلى علي وحمزة[1] ،وغيرهما من أبطال (المشاهد) أو معارك الجهاد الملحمية.

وأننا نكتفي الآن بالإشارة إلى هذا التناقض، على أن قدماء المؤلفين أنفسهم لاحظوا شيئاً من ذلك، فحاروا في تعليل تلك الأعمال الخطيرة المنسوبة إلى العبيد من السودان، فأخذوا يخرجونها على طرق متنوعة، منها ما توفقوا فيه، ومنه ما ظهر تكلفه وتعمله، من ذلك أنهم جعلوا (أحابيش) مكة يلتحقون، في يوم أحد، باليثربي أبي عامر الراهب[2] ،فأصابوا هدفين: عللوا شجاعة الأحابيش بطريقة لا تنال من شجاعة قريش المزعومة، وعملوا على خفض شأن السيد النصراني وقد غدا مكروهاً في نظر التقليد المدني، لأنه فضّل استقلاله الشخصي على الخضوع للنظام الشديد الذي سنه النبي في المدينة.

وهناك رواية ثانية عملت على إنكار شجاعة الأحابيش إنكاراً تاماً، فزعمت أن قريشا منعتهم من الاشتراك في المعركة، وتركتهم يحفظون الاعتدة والأمتعة[3]، وكلها محاولات تنم عن حيرة الرواة الأقدمين. والغريب أنها لم تلفت نظر علماء المستشرقين قبل عهدنا،

---

[1] يذكر عن حمزة أنه قتل بيده، في يوم أحد ٣١ رجلاً (أسد الغابة ٣: ١٨٥) أما علي فراجع ملخص مآتيه في أسد الغابة ٤: ١٩-٣١.

[2] أطلب هذا الاسم في فهرس ابن هشام، السيرة: السمهودي ١: ٢٠٢.

[3] الواقدي ٢٢٧، الأغاني ١٤: ١٢.

فظلوا مدة على اعتقاد ولهوسن بكون (الأحابيش حلفاء قريش السياسيين).

هكذا يحاول الرواة ومؤرخو المغازي الحطّ من عمل الأحابيش في موقعة أحد، وفي غيرها من المواقع، ليظهروا شجاعة قريش، حتى في زمن كانت لا تزال فيه على شركها، فتناوىء النبي وتكسر جنوده وأنصاره كما حصل في موقعة أحد نفسها، على أن التاريخ ينسب هذا الانتصار لشجاعة الأحابيش وكثرة عددهم في الجيش المكي. ولكن لا بأس بذكر شيء من تلك المحاولات، سواء أكانت في تخفيف وقع الإنكسار على النبي وأنصاره، أم في الإشادة بشجاعة القرشيين المنتصرين.

ولا يخفى أن موقف مؤرخي المغازي هنا في غاية الدقة والحرج، فهم في حيرة مزدوجة، ولا مصادر لهم في الحقيقة إلا ذاك الشعر القليل الراقي إلى عهد الحوادث أو إلى ما بعدها بقليل. فكان لابد لهم من استغلاله، إلا أنهم لم يصرحوا بهذا الاستغلال، بل عرضوا ما استفادوه من الشعر، كأنه معلومات مستقلة، ثم أتوا بالأبيات المستغلة شواهد عليها.

بيد أن النقد الحديث كشف الستر عن هذه العملية، إذ تحقق وهن معلومات السيرة إذ لا شعر يسندها، ولاحظ توافق معلومات السيرة والشعر القديم في مواضع النقص والإهمال. أما في ما يهمنا من موقف قريش والأحابيش في أثناء المعركة، فإن حسان بن ثابت، الشاعر

اليثربي، ذكر أن لواء قصي، جد القرشيين في مكة وواضع دستورهم، نقل من واحد إلى واحد في معركة أحد حتى قتل من حملته عشرة رجال[١]. فأسرعت السيرة إلى تدوين هذا الحادث، وفيه تظهر شجاعة قريش. ولقد كاد اللواء يؤخذ، بعد مقتل هؤلاء العشرة، لولا أن تقدمت امرأة من اللواتي كان القرشيون قد أتوا بهن إلى المعركة (لئلا يفروا)[٢] وأسمها عمرة الحارثة[٣]، فخاطرت بنفسها ورفعت اللواء. وهذا ما يشير إليه حسان بقوله:

... فلولا الحارثيةُ، أصبحوا يباعون في الأسواق بيع الجلاببِ[٤]

وهو لا يدع تلك الفرصة تفوته، فيحمل على القرشيين ويعيّرهم بأن رجالهم لم تطق حمل اللواء، لأن اللواء لا يحمله إلا (الأشراف المعوقون) وهو معنى (النجوم) في قوله:

لم تعلق حمله العواتق منهم إنما يحمل اللواء النجوم![٥]

---

[١] حسان: ديوانه ٥: ١٧، الواقدي ٢٢٢.

[٢] الطبري ١: ١٢٨٥؛ ابن هشام: السيرة ٥٥٧؛ السمهودي ١: ٢٠٠.

[٣] تجد نسبها في الواقدي ٢٠١.

[٤] ابن هشام: السيرة ٥٧١.

[٥] الديوان ٥: ٢٢، وشرحه، ص ١٩- ولا بأس بإيراد عدد من أبيات هذه القصيدة، فندل على روح حسان الهجائية ونقمته على قريش، كما نشير إلى المقطع الذي استقى منه مؤرخو (السيرة) في وصف تلك الحادثة. قال مخاطباً بني عبد الدار بن قصي، وهم من المشركين، يوم أحد:

ولي البأس منكم، إذ حضرتم، أسرةٌ من بني قصي، صميـم

ومهما يكن من تلميحات السيرة، فإن السودان. فضلاً عن وحشي، قد اشتركوا في معركة أُحد. ومنهم صواب الحبشي[1]، يتناول اللواء أخيراً فيحميه حتى يُقطع عليه. ولم يغفل حسان بن ثابت هذا الأمر، فاستغله على طريقته من هجو القرشيين بذلك الأسلوب اللاذع، فقال:

جعلتم فخركم فيه لعبدٍ ... من الشم من يطا عفر الترابِ[2]

من الحق أن حسان مر الهجاء، لاذع اللسان، وافر الفحش[3]، ولكنه يبذل جهده في تخريج انكسار قومه في أحد، وبالتالي فشل المسلمين، وما كنا لنلومه في هذا الاجتهاد. أما الغريب فهو أن تكتفي السيرة بحل أبيات حسان مقتنعةً بمعلوماته وحدها في تأريخ الحوادث،

---

تسعةٌ تحمل اللواء، وطارت ... في رعاعٍ من الفنا، مخـــزومُ

لم يولوا حتى أبيدوا جميـعاً ... في مقامٍ، وكلهم مذمـــومُ

بدمٍ عاتكٍ، وكان حفـاظاً ... إن يقيموا، أن الكريم كريـمُ

وأقاموا حتى أزيروا شعوباً ... والفنا في نحورهم محطـــومُ

وقريشٌ تلوذ لنا لـــواذاً ... لم يقيموا، وخفَّ منها المعلومُ

لم تطلق حمله العواتق منهم ... إنما يحمل اللواء النجـــومُ

[1] وقد شاء بعض المؤرخين أرضاء الجميع، فحملوا صواب المذكور عبيداً لبني عبد الدار، حملة اللواء الرسميين (الواقدي ٢٢٥، ابن الأثير: النهاية ١ : ٧٠، على أن السيرة لا تذكر كيف انتقل اللواء من عمرة إلى صواب، وأنى لها ذلك ولا مصادر لديها إلا بيت حسان المذكور (السيرة : ٥٧٠-٥٧١؛ ٦١٠) فحيثما كثر الشعر القديم زادت معلومات السيرة، والضد بالضد.

[2] الديوان ٢٠٠ : ٢.

[3] حتى أن ابن هشام يحذف عدداً من أبياته بسبب اقذاعها (السيرة: ٥٢٢، ٥٢٤، ٥٧٣، ٥٨١).

فتذكرها دون إسناد، أو بإسنادٍ غامض لا قيمة له كقولها: (حدثني بعض أهل العلم)[1] بيد أننا لا نأسف لهذه السذاجة التي تطلعنا، من حين إلى آخر، على طرق السيرة في جمع الأسانيد ونقد المعلومات، فترفع ما قد يعلق في ذهننا من شك في سياسة القرشيين النفعية، وعدم تعرّضهم. ما أمكنهم ذلك. لمخاطر الحروب.

وقد شعر البدو. منذ القِدم. بهذه الصفات في أهل مكة، فعبّروا عنها بأسلوبهم الشائق ذي الصور الفطرية، مشبهين قريش بالضبّ، لأنها تتراجع فتحتمي بالحرم إذا ما أحست بالخطر، كما فعلت في أوائل حرب الفجار، وذلك قولهم: (سمي قريش البطاح الضب للزومها الحرم)[2]، (وقريش البطاح)، تعني سكان أوساط مكة، وهي أحياء السراة من كبار الرأسماليين، مقابلةً (بقريش الظواهر)[3]، وكذلك الكلام عن أهل المدينة من الأنصار، وهم أخبر من غيرهم بالقرشيين، وأقل تلطفاً في نعتهم، إذ كانوا يشبهونهم بالعجائز الصُلع في جبنهم وضعفهم في مواطن القتل[4]، حتى أن يهود يثرب أنفسهم نبّهوا النبي

---

(1) ابن هشام: السيرة ٥٧٠، أما الواقدي فيحذف هذا الاسناد في سبيل إبحار روايته.

(2) البلاذري: الأنساب، المخطوطة المذكورة، ورقة ٢٢ قفا.

(3) اطلب أسد الغابة ٣: ١٧٢، Lammens, La Meeque, 33.

(4) قابل بابيات كعب بن مالك في يوم بدر: ابن هشام، السيرة ٥٣٨، ابن الأثير: النهاية ٣: ٢٧٣.

كي لا يغتر بانتصاره على قرشيي مكة لأنهم (أغمار لا يعرفون القتال)[1].

ولقد ازداد احتقار اليثربيين لأهل مكة، دون شك، كما يُستنتج من احتجاج النبي أمام الأنصار ودفاعه عن شجاعة قريش[2]، كما دافع أيضاً عن جماهم، أمام أنصاره المدنيين أنفسهم[3]، ولا بأس بأن نذكر من جملة تلك المنازعات بين القرشيين والمكيين، ما وقع لحسان بن ثابت، والحرث بن هشام المخزومي. وقد فرّ هذا في وقعة بدر، فهجاه حسان وعيّره جبنه وفراره، فلم ينكر الشاعر- وقد كان الحرث شاعراً – ولم يجد غير هذا العذر دفاعاً عن موقفه، بل فراره المخجل، قال:

وعلمت أني، أن أقاتل واحداً أُقتل،ولايضرر عدوي مشهدي[4]

هل هناك أوضح من هذا الإقرار بجبنه وجبن قومه، وفرارهم جميعاً؟ على أن هذا البيت المشؤوم . الذي لا ينتقي جمّاع المنتخبات الأدبية من الإعجاب به[5].لم يمنع الشاعر المخزومي من التمتع باحترام عشيرته، فعندما أراد هجر مكة، لعشر سنوات مرّت بعد الحادثة، ودّعه

---

[1] ابن هشام: السيرة ٢٨٢؛ الواقدي ١٧٨؛ ابن الأثير: النهاية ٣: ١٧٠.

[2] الواقدي: ١١٠، ١٧٨.

[3] أسد الغابة ٣: ٢٧٣.

[4] ديوان حسان ٣: ١١، ١٥١؛ ابن قتيبة: المعارف (الطبعة المصرية) ٩٥؛ ابن هشام:ا لسيرة ٥٢٣، ثم ٥١٧، ٥٣٠، ٥٦٩.

[5] راجع العقد ١: ٤٢.

سكانها وداعاً قل أن يحدث مثيله، فشيعّوه والحسرة في قلوبهم، والدموع بعيونهم حتى (لم يُرَ يوم كان أكثر باكياً وباكيةً)[١].

ولا شك في أن أولئك الرجال تدارسوا بعضهم بعضاً، فتفاهموا، وتسامحوا ما قد يعدّه غيرهم من مخازي الرجولية. يؤيد ذلك أن النبي نفسه شعر بالحاجة إلى تحليفهم اليمين كي لا يفروا في الحديبية[٢]، كلها أسباب دفعت مؤلفي السيرة وأرباب التأريخ الرسمي إلى العمل على إخفاء بعض هذه المخازي، متناسين مقاومة قريش المستطيلة للنبي، مجتهدين في سدل الستار على مظاهر جبنهم، واتقائهم مخاطر الحرب. يوم أُحد. بأحابيشهم وعبدانهم، وهل من حاجة إلى المراجعة وإقرار الترادف بين هاتين اللفظتين؟ إن يكن الأحابيش (حلفاء قريش السياسيين) على ما يريد ولهوسن، فأي معنى محقر في اسمهم، وكيف صارت اللفظة (أحابيش) من أقذع الشتائم وأقبح النعوت كما نراها في فم نابغة الهجاء حسان، وهو من أعرف أبناء عصره بقيمة الألفاظ الهجائية، ومواضع السباب، إذ نراه لا يتردد في استعمالها، عندما أراد هجو بعض أعداء النبي، من البدو، فقال:

أنتم أحابيش جمعتم بلا نسب[٣].

---

[١] والتعبير من القوالب التي يرددها الحديث مئات المرات، أطلب الأغاني ١١: ١٥٢، السمهودي ١: ٢٢٧، ٢: ٤٠٩، Le Bereeau, L 196.

[٢] أسد الغابة: ٣: ٢٦٥.

[٣] الديوان ٦١: ٢.

هذا السهم الدقيق المسدد يقع دون الهدف، إذا فهمنا (بالأحابيش) ما يقصد المحدثون أن يفهمونا إياه من كونهم (حلفاء قريش السياسيين)، وهم لا يتعبون هذا التعب إلا في سبيل تخليص قريش من عار الالتجاء إلى عبدان أجانب عن العرب. فنراهم يستعملون للفظة (أحابيش)، شروحاً تُرضي السيادة القرشية، مسلمين بأن قوم ابن جدعان، وأبي أحيحة، وأبي سفيان، كانوا يلجأون إلى جيرانهم البدو، إلى الخلعاء، إلى اللصوص من أسلم وغفار، ولا بأس في ذلك ما دام هؤلاء من العرب، وهو ما تفهمه السيرة بلفظة (أحابيش) أو لم يقر معاوية الكبير هذا الحاديث، وهو أشهر من يمثل العلم السياسي عند العرب[1]، فهنأ البدو على محاربتهم في سبيل قريش[2]. وقد كان خليقاً بهذا السياسي الداهية أن يتكلم بها شاءت له مهارته البليغة. على أنه لم يتوصل إلى إقناع شعراء البدو، وفيهم من كان يجمع السذاجة الظاهرة إلى دقة الملاحظة وتفهم حقيقة الأمور، فيقول:

تولت قريشٌ لذة العيش، واتقت بنا كل فجٍ من خراسان، اغبرا[3]

---

[1] أطلب كتابنا Mo'mvia واستنتاجاتنا في .Berceau, I, 332-334

[2] العقد ٢: ٤١ - كان النبي أفضل من يمثل الشجاعة المكية، في نظر المسلمين؛ النبي ثم أبو بكر، وقد ظهر كلاهما في العريش، أي الخيمة من ورق الشجر، في بدر، يراقبان تطورات المعركة، ويصدران الأوامر عن بعد (أسد الغابة ٣: ٢١٢) حتى أن الملك جبريل لام النبي بكل بساطة، فقال: (أنت في الظل، وأصحابك يقاتلون في الشمس!) (أسد الغابة ٥: ١٦٦).

[3] أبو تمام: الحماسة (Freytag) ٦٦٧؛ قابل بابيات عمرو بن معد يكرب؛ (الأغاني ١٤: ٤٠) وفي أسد الغابة (٣: ٣٨٠) أن البدو (مادة الإسلام) راجع .Berccau, I, 332

هذا في الإسلام، وقد أخذت الإمبراطورية العربية تنشر السيادة القرشية بانتشار أعلامها وجيوشها. أما قبل الفتوح فلم يكن البدو ليصبروا على ادعاء القرشيين، ولا ليحترموا (سخينة)، وشاهدنا ذاك الشعر الجاهلي الذي يفتخر فيه أربابه بانتصارهم على أهل مكة، وبحملهم على (سخينة) حملات لم يوقفها إلا الليل ومنطقة الحرم. وقد ذكرنا شيئاً من هذا الشعر في ما تقدم.

ولا بأس بإعادة بعضه، من ذلك قول خداش بن زهير:

يا شدةً ما شددنا، غير كاذبةٍ　　　على سخينة، لولا الليل والحرم[1]

بيد أن بني غفار لم يكونوا ليحترموا الحرم. كما تقدم لنا فذكرناه في أول هذا المقال. أما غيرهم من البدو فكانوا يتجاوزون ذلك في ذكر شجاعتهم وبطشهم بالقرشيين، فيقولون ما قال عبد الله بن همام:

إذاً لضربتهم حتى يعودوا　　　لمكة يلعقون بها السخينا[2]

وإننا لنخطىء إذا صدقنا هذه الأقوال، كما هي، ولكن مهما كان فيها من المبالغة، فإن القرشيين كانوا، في العصر الإسلامي، يشعرون بشدة وطأة تلك التذكارات القديمة، وبعدم توافقها والسيادة الحالية

---

[1] الجاحظ: البخلاء ٢٥٨؛ الأغاني ١٩: ٧٦؛ العقد ٣: ٩٢.

[2] الجاحظ: البخلاء ٢٥٨؛ Yazid, 46 – وهناك بيت في هجو (سخينة) أورده صاحب الأغاني ١٥١: ٢٩، وهو:

همت سخينة أن تغالب ربها　　　وليغلبن مغالب الأغلاب

على العالم العربي. فكان لابد من محوها شيئاً فشيئاً، والعمل على أن تبدل بها سيادة قرشية تستند إلى أقدم العصور، هذا ما كان من واجبات المؤرخين الرسميين، وهم يكتبون تحت مراقبة خلفاء بغداد، أشهر من يهمهم هذا الإبدال.

ولنعد إلى الأحابيش أو العساكر السود، فكر النبي. بعد فتح مكة. بالسير على بني هوازن، فنصحه أبناء وطنه أن يستخدم . في ذلك . الحُبشان وأكثرهم من رقيق بني مخزوم[1]، وإذاً فقد كان هذا النوع من التجنيد معروفاً، على أن النبي أجاب، كما يزعمون، بقوله: (لا خير في الحبش،÷ إن جاعوا سرقوا، وإن شبعوا زنوا)[2]. وأي حكم أوضح من هذا، وأشد وقعاً! وكيف لنا بالبرهان على شجاعة القرشيين المشركين، الذين فروا في بدر، والخندق، ويوم الفتح، وكانوا يدفعون بالعسكر المأجور ليحارب عنهم، حتى أنهم حضروا وقعة حنين حضور المشاهدين ليس غير ولم يخطىء الأنصار إذ وصفوهم فقالوا: (كثير شحم بطونهم)، وهي صفة رجال الأعمال المستقرة، والتجارة المطمئنة، لا رجال الكد والسفر والحروب، وهناك مشكل جديد يقتضي بعض الشرح. وهو أن النبي نفسه الذي يحكم الحكم الشديد على الحُبش في هذا القول فينفي صلاحهم للحرب، يمدح، في قول آخر، خالد بن

(١) الأغاني ١: ٣٣.

(٢) الأغاني: الموضع نفسه؛ والسيوطي: الموضوعات ١: ٣٢١.

الوليد لأنه وقف (رقيقه في سبيل الله)[1]، أي في سبيل الجهاد، في سبيل الحرب المقدسة.

ولم يكن رقيق خالد ـ وهو مخزومي ـ إلا من أولئك العبيد، لأن الرقيق الأبيض كان نادراً في مكة آنذاك[2]. ومهما يكن من أمر، فإن المؤرخين الرسميين لا يرضون، بحالٍ من الأحوال، أن يخلط بين هؤلاء العبيد الحُبشان (وأحابيش) قريش. وهم يزعمون أن (الأحابيش) بدو من قبائل تهامة، وقبائل جنوبي الحجاز، من كنانة[3] وخزاعة، وإذاً فهم عرب خُلص[4]، كانت قريش ـ استناداً إلى معاهدات ومحالفات سابقة، تستدعيهم للاشتراك معها في الحروب. وهذا معنى ما يوردونه من أقوال عن قريش وأنها كانت (تستجلب العرب في بواديها)[5]، وأحياناً كانت تستأجر حياً كاملاً من قبائل العرب[6].

---

[1] أبو عبيد: غريب الحديث (مخطوطة كويرولو، ستانبول) ص ١٠؛ ابن الأثير: النهاية ٣: ٢٠.

[2] راجع الأغاني ١: ٣٣.

[3] قابل بشطر يورده ابن هشام: السيرة ٧٠١، لشاعر مكي معاصر: جمع من كنانة غير عُزلِ.

[4] ابن قتيبة: المعارف (طبعة مصر) ٢٧؛ العقد ٢: ٤٧؛ الأزرقي ٧١؛ البكري: معجم ٢٦٣-٢٦٤ ابن دريد: الاشتقاق ١١٩؛ ياقوت: معجم (طبعة مصر) ٣: ٢١١؛ الأغاني ١٩: ٧٦ وقد ذكر ميل خزاعة إلى مخالفة محمد منذ الهجرة خاصة، الواقدي ٣٢٩؛ الطبري ١: ١٥٢٥.

[5] الواقدي ٢١١: وقابل يقول حسان المذكور آنفا: أنتم أحابيش جمعتم بلا نسب!

[6] الواقدي ٢٦٣ أو يصح أن نرى الأحابيش في أولئك الشذاذ من (أوباش وأتباع قريش)، الذين قاوموا خالد بن الوليد، يوم الفتح؟ الطبري ١: ١٦٣٥، الحازمي: ناسخ

أما من لا يكتفي بهذه الشروح الواضحة في نظر المؤرخين الرسميين، فلا يستحق الجواب الشافي، على أن هناك مشكلاً لم يُحل، وهو الشبه الغريب بين لفظ (الأحابيش) واسم سكان حدود الاريتره الغربية. وهنا أخذت مخيلات لغويي العرب بتوليد الشروح والمشابهات المتنوعة، ولا شيء يصدّ تلك المخيلات في سبيل الشرح والتعليل. فكلما غرب اللفظ غرب شرحه وبعُد استخراجه يسهل ذلك ما في أصول الفقه من مرونة، وما في تصاريفها وصيغها من لين وتنوع. فكانت النتيجة أن من يشرح لفظ (الأحابيش) بقرابته مع (الحبش) و(الاحبوش) ويضلل. أو ليس في اللغة فعل (تحبش) بمعنى (اجتمع) يعززه عدد من أقوال الأئمة ونصوص القدماء[1]؟ وإذاً (فالأحابيش) غير سكان بلاد الحبش. يُسلم اللغويون والمؤرخون بأنهم من العسكر المأجور الذي كانت تستخدمه قريش، لأنهم لا يمكنهم إنكار كل الحقائق التاريخية على أنهم يتراجعون أمام الفكرة بأن قريش استعانت بالحبش. فيجعلون الأحابيش من العرب، تحالفوا مع قريش، قديماً[2]،

---

ومنسوخ ١٥٤؛ ابن الأثير: النهاية ٤: ١٩- وعلينا أن نشير هنا إلى أن مادة (الأحابيش) غير موجودة في دائرة المعارف الإسلامية.

[1] اطلب ابن السكيت: تهذيب الألفاظ (طبعة شيخو) ٥٣، ٧٠٦؛ ابن قتيبة: المعارف ٢٠٢، نقلاً عن حماد الراوية؛ حسان بن ثابت : ديوانه ٦٣: ٢، وابن هشام: السيرة ٢٤٦، ٢: ٨٠.

[2] أطلب رواية نقلها صاحب الأغاني (١٦: ٦٦، ٦٧) ولكنها غير قديمة، وعليها مسحة الوحي العباسي.

فكانت تستعين بهم لتعبئة جيوشها[1]، أما اسم (الأحابيش) الذي يُطلق على هؤلاء العساكر فيشقه اللغويون من اسم جبل حبشي الذي تحالفوا عنده، وهذا قول ابن دريد عنهم: (حلفاء قريش تحالفوا تحت جبل يقال له حبشي فسموا الأحابيش)[2].

أي شرح أبسط من هذا، وأقطع السؤال والاستيضاح والنقد، على أن النقد لا يؤمن بهذه البساطة، فيسأل: ولماذا سار المكيون بعيداً، ففتشوا عن موضع لإجراء ذلك التحالف، خارجاً عن حرمهم؟ ولا يخفى أن المعابد كانت كثيرة في مكة، ويقول الحديث إن العرب كانوا يقدمون إليها من جميع أنحاء بلادهم، بل من الشام والجزيرة ليعقدوا محالفاتهم أو ليجددوها[3] ولا يمكن القول أن موقع الحلف اختاره (الأحابيش) أنفسهم واضطروا قريش إلى قبوله. فإن أولئك المعاهدين، في نظر الرواة، كانوا من خزاعة ومن كنانة، ويظهر أن بعض المؤرخين شعروا بإمكان هذا الاعتراض، فحاول اليعقوبي التخلص منه واضعاً في فناء الكعبة مكان حلف الأحابيش[4]، ولا شك في أنه بهذا الوضع أولى الحلف روعة دينية لم تكن له، ولكنه. بحذفه جبل (حبشي). أفسد

---

[1] وهو معنى (استأجر) الواردة في كثير من النصوص القديمة، أطلب الأغاني ١٨: ٣١٢.

[2] ابن دريد: الاشتقاق ١١٩؛ ابن هشام: السيرة ٢: ٨٠.

[3] ابن سعد: الطبقات ١: ٤٤، وهكذا يعمل المحدثون على جر قبائل كلب وتغلب إلى مكة أحياناً.

[4] اليعقوبي: تاريخه ١: ٢٧٨، ١٧٩، وقد استند التاريخ إلى الشعر على طريقته المعروفة، قابل بما في ابن هشام السيرة ٥٥٦، وهو يذكر الحطيم (والحطيم) معبود لم تحقق هويته بعد.

على اللغويين شرحهم واجتهادهم في تخريج أصل (الأحابيش) من غير سكان الحبش..

بيد أن هؤلاء لم يتنازلوا عن جبلهم (حبشي)، بل ظلوا متمسكين به، على حيرتهم واضطرابهم في وضعه من تلك الأرض، وهو بحث سنعود إليه، فيزيد معلوماتنا عن أصل (الأحابيش) في جزء مقبل من (المشرق) إن شاء الله.

# الأحابيش

# والنظام العسكري في مكة

# زمن الهجرة: القسم الثاني

لقد حاولنا في القسم الأول من هذا البحث[1]، أن نزيل شيئاً من الغموض العالق (بالأحابيش) لفظاً وحقيقةً، فتحققنا وجود أولئك العساكر السود في الحبيش القرشي، وأشرنا إلى أن التاريخ الرسمي أبعد من أن يُقر به. إنما هو يجعل من (الأحابيش) عن بلاد الحبش، إلى جبل في جزيرة العرب ينسبون إليه أولئك الأحلاف فيقول عنهم ابن دريد: (حلفاء قريش تحالفوا تحت جبل يقال له حبشي فسموا الأحابيش)[2].

وانتهينا إلى اضطراب اللغويين في وضع جبلهم المزعوم من بلاد العرب، وذلك أنهم في تحقيقاتهم الحاذقة اللقة لا ينتبهون للجغرافية. بل قد يضطربون في تعيين، لا موضع ذاك المحل فقط، بل طبيعته أيضاً حتى

---

[1] في (مشرق)، ١-٢٢.

[2] ابن دريد: الاشتقاق ١١٩؛ ابن هشام: السيرة ٢: ٨٠.

ليجوز لنا أن نسأل أهو جبلٌ ام وادٍ؟[١] إنما يكتفي جمهورهم بوضعه في منطقة مكة، أو في بلاد تهامة. ولا يخفى ما في هذا التعيين غير المترجح من مثيرات الشك. وهو ما لاحظناه غير مرة في مؤلفي (المعاجم) من انصرافهم عن الأخذ بطريقة الاختبار والتحقق الشخصي في الشؤون الجغرافية، هذا على ما في معاجمهم من غزارة مادة، وسعة معلومات.

وليس من شك في ان هذا الضعف النقدي، بل هذا النوع من مظاهر الكسل العقلي، يحط كثيراً من قيمة تلك المجاميع. وهذا ياقوت يقترح ـ في سرعته المعهودة ـ بأن يجعل الموضع المقصود في وادي نعمان الأخضر[٢]، نعمان الآراك[٣]، المشرف على المناسك في عرفة ومنى، وما دامت المسألة مسألة اقتراح وفرضيات فلم لا يكون لنا جبال بدل جبل واحد؟ أو لم يمل الأزرقي إلى التمييز بين حبشي، جبل التحالف، وحبشي وهو جبل آخر لا شأن له، مؤكداً أن الاسم المذكور آنفا(لم يُنسب إلى رجل حبشي)[٤].

ومعلوم أن الكهان والعرافين كانوا ـ زمن الجاهلية ـ يجنحون إلى المرتفعات[٥] فينصرفون فيها إلى القيام بشعائر مهنتهم الخاصة. فكان لهم

---

[١] يذكر ابن هشام (السيرة ٢٤٦) وادي الأحباش، فهل يمهد السبيل في ذلك إلى التقريب بينه وبين الأحابيش؟

[٢] اطلب كتابنا Le Berceau de l'Islam, I, 69.

[٣] ياقوت (الطبعة المصرية) ٣: ٢١١.

[٤] الأزرقي (Wustenield) ٧١، ٤٩١.

[٥] أسد الغابة ٥: ٧؛ السيرة الحلبية ١: ٢١٢.

حول مكة كثير من تلك القمم تعلوها أماكن العبادة[1]، فلا عجب إذاً بأن يكون المفسرون من الاختصاصيين بشرح (الغريب)[2]، قد لجأوا إليها مفتشين عن اسم يمكنهم أن يقربوا بينه وبين (الأحابيش). ومن يفتش بجد في تلك الكثرة من أسماء الأعلام الوافرة في مناطق الصحراء. وإذاً فقد اكتشف العلماء هذا الاسم محرّفاً بعض الشيء في الآليات، أو الإيمان القديمة، التي كان يكثر منها العرب في جميع عصورهم؛ وكأنهم لا يقنعون بالتعبير البسيط عن أفكارهم، فينفرون عن الاكتفاء بالقول: (نعم، نعم، ولا، لا)[3]، مسيرين بطبيعتهم المندفعة وأهوائهم المضطربة حركةً وحياةً إلى تأييد كلامهم باليمين، بل بسلسلة من الإيمان يرسلونها فطرةً في أحاديثهم البسيطة، وفي أقوالهم الرفيعة، في قصائد شعرائهم وفي أسجاع كهانهم خاصة. بل أن بعض السور القرآنية لا تعرف من أنواع الخطابة إلا القسم[4]، ولقد كان من الطبيعي أن تكثر في هذه الأيمان أسماء المرتفعات التي يأوي إليها الكهان وحجارتهم المؤلهة، فيستشهد

---

[1] راجع لائحة تلك المرتفعات الكثيرة في الأربعين الصفحة الأخيرة من مؤلف الأزرقي (Wustenield).

[2] وهو تلك الألفاظ القديمة، والتعابير الغريبة الاستعمال، الحافلة بها الأحاديث المنسوبة إلى النبي، ولا يخفى أن أكثرها مدسوس، أدخله الواضعون ليوهموا الناس قدم تلك الأحاديث وصحة نسبتها، ولا يزال يغتر بهذه المظاهر عدد كبير من علماء الإسلاميات ممن ينقصهم التضلُع أو يجيب بهم التسرع والعجلة.

[3] متى ٥: ٢٧.

[4] قابل بما في القرآن ١٩: ٦٩.

بها البدوي على صحة قوله[1] فيحلف أنه مقيم على العهد (ما أقام الحبشي)[2] مثلاً؛ أو (مارسا حُبشي)[3]، أو حَبَشي. أما في الإيمان القرشية فكثيراً ما استبدل بحبشي جبل ثور، أو ثبير، أو حِراء[4]، أو أبو قبيس، وكلها مرتفعات إلى المجتمع المكي[5]، وأبعد شهرة بفضل مناسك الحج السنوي.

ولم يكن اللغويون ليطلبوا أكثر من هذه الاكتشافات، فعلقوا بها ووضعوا قرب حبشي مكان ذاك التحالف العسكري. بيد أنهم. لسوء الحظ. لم يتفقوا على لفظ الاسم، هل هو حَبَشي، أم حُبَشي، أم أحباش، أم حَبِيش؟ كل هذا ينم عن استقائهم المعلومات من الكتب، معرضين عن طريقة التحقق الشخصي. وقد مال البكري إلى تفضيل لفظ (حَبِيش)، وهو أقلها وروداً، ذاكراً أن (أهل الحديث) يميلون إلى حُبشي. وهذا قوله: (وحبِيش جبلٌ بمكة، وبه سُميت الأحابيش حلفاء قُريش، لأنهم تحالفوا تحته ألا ينقضون ما أقام حبيش، وأهل الحديث يقولون حُبشي،

---

(1) الجاحظ: الحيوان ٤: ١٥٠؛ أسد الغابة: ٥: ٧؛ ابن هشام ١٢٢؛ ابن الأثير: النهاية ٣: ٢٧٢، ٣: ٤٥، ٤: ٥٩؛ الهمداني: جزيرة العرب ١٢٦؛ البكري: المعجم ٦٠٣.

(2) البكري: المعجم ٢٦٣-٢٦٤؛ ابن قتيبة: المعارف ٢٠٣.

(3) ياقوت: المعجم (الطبع المصرية) ٣: ٢١١، وهو يكتب أيضاً: حبيش.

(4) الأغاني ١٣: ٣٩، ٨٥، وينزل هذا الجبل في كتب (الصحيح) منزلة جبل الطور أو طابور في الإنجيل، أسد الغابة ٣: ٢٧٨، ٤: ٦٣.

(5) لقد درسنا تأثير هذه المرتفعات في كتابنا: Les samctuaires preslamites dans l'Arabie occidentale, p. 21.

بضم أوله منسوب على مثال فُعلي، موضع على عشرة أميال من مكة، به مات عبد الرحمن بن أبي بكر فجأة[1]، والله أعلم، حَبِيش)[2].

أو لا يجوز لنا. وقد رأينا هذا الاضطراب والغموض والجمجمة. أن تقول بأن اللغويين والمفسِرين جهلوا، أو تجاهلوا، الأصل اللغوي الحقيقي للفظة (الأحابيش)؟ فعلقوا بهذه الشروح الضعيفة، مكتفين بما يبعد عن (أحابيشهم) كل علاقة بالسودان الآتين من بلاد الحبش، بأولئك الذين كانوا يسمُّونهم (عبدان أهل مكة) أو (سودان مكة)[3] ولقد كان من هم العاطفة الوطنية المحلية أن تصل إلى هذه النتيجة، بل إلى هذا الغموض والخلط.

ثم أن المذهب المكي. في عمله الدائب على سد الثلم الواهية في مصادر تاريخه الوطني. .لا يأنف أن يلتجىء أحياناً إلى شعر حسان بن ثابت، على الرغم من نزعة حسان المدنية، وهجائه اللاذع المقذع في القرشيين[4] ،ولم يتنبه أرباب هذا المذهب، مؤرخين كانوا أو مفسرين، لما يجرّه عليهم الاستشهاد بشعر حسان، أو أنهم لم يفقهوا كل الفقه هذا

---

[1] وفي الأغاني إشارة إلى هذه الحادثة ١٤: ٧٠، ١٦: ٩٦؛ ويقال أن قبر عبد الرحمن المذكور آنفا كان معروفاً هناك. أما الأزرقي ، ٤٣٢، فيقول: (مات بالحبشي فلم يُحمل إلى مكة) وقوله حجة في تاريخ المنطقة المكية. ولم يزد من أتى بعده على أن نقلوه، قابل بها في أسد الغابة ٣: ٣٠٦.

[2] البكري: المعجم ٢٦٣-٢٦٤.

[3] أسد الغابة: ٥: ٨٢ في الكلام عن وحشي.

[4] ابن هشام: السيرة ٥٧٢، ولتقابل بها في الصفحة ٥٢٣.

الشعر القديم، لكثرة ما تكاثف عليه من الغموض، ولم يمر على نظمه قرنٌ كامل. وهكذا، على الرغم مما اتصف به مؤلفو (السيرة) من حس لغوي دقيق، نراهم لا يميزون بسهولة بين المقطع الهجائي والقصيدة التاريخية. هي هفوة وقع فيها ابن هشام، من عرفناه عالماً بالشعر القديم، مدققاً في قبول صحة نسبته[1].

ولا يخفى أن ديوان حسان سجل شامل، بل شاهد حي، لمظاهر حقد الأنصار على المهاجرين، أولئك القرشيين الذين احتلوا مدينتهم، فضيقوا عليهم.

وفي هذا الديوان مقطعٌ، هو الحادي والستون من طبعة هيرشفلد[2]، يلمح إلى بعض الحوادث الحربية في حياة النبي، وإذاً فهو يهمنا في الموضوع الحاضر. بيد أن أبا زيد الأنصاري[3] ينفي أن تكون القصيدة لحسان، فينسبها إلى كعب بن مالك، وهو من شعراء المدينة أيضاً، ولا يستغرب المطالع هذا التردد في نسبة الشعر، فهو طبيعي يستند إلى المسوغات العديدة من اضطراب التقليد الشعري وضعف الثقة

---

[1] من ذلك اهتمامه بالتدقيق في صحة الشواهد في الصفحات ٣٣٧، ٤١٦، ٤١٨، ٤١٩، ٤٣١، ٤٦٢، ٤٦٣.

[2] في مجموعة (Gibb Memorial Fund) وهذه الطبعة ضعيفة النقد تظهر بحاجة إلى مزيد من التدقيق.

[3] ابن هشام: السيرة ٦١٣، كان جد أبي زيد، صاحب الغريب أو صاحب النحو، من الصحابة (أسد الغابة ٥: ٢٠٢) فكان لابد من أن يعرف أبو زيد هذا تاريخ الأنصار الأدبي.

ببعض الرواة، ولا سيما في ما يخصّ شعر حسان، وقد كثر فيه المنحول. ومهما يكن من أمر، فإن المقطع قديم، مدني الأصل، وهو (نقيضة) يرد بها الشاعر على أحد شعراء مكة، هُبيرة بن أبي وهب، (فينقض) قوله، ولنحذر أن نغتر كثيراً بآثار شعراء قريش قبل الفتح[1]. إنما نحن نقبلها بكل تحفُّظ، مشيرين إلى ما يهمنا من هذه القصيدة المنسوبة إلى هُبيرة بن أبي وهب، والمؤلفة من تعابير متنوعة المصادر[2] ،وهو هذا البيت:

سُقنا كنانة من أطراف ذي يمنٍ عُرض البلاد على من كان يزجيها[3]

ولا يخفى أن النبرة الفخرية كافية وحدها لتعيين زمن إنشاء القصيدة.

فهي تنقلنا إلى عهد تسلط الخلافة القرشية واستبدادها، أما قبل ذلك، زمن صدر الإسلام، وهو الزمن المزعوم لإنشاء القصدية، فلم يكن بين معاصري أبي سفيان من يغتر هذا الغرور بسيادة المكيين على جيرانهم من أُباة البدو.بيد أن صفات الغلو هذه هي التي دفعت جُمَّاع

(1) قابل، في ما خص مراثي قتلى بدر، بملاحظة ابن هشام النقدية في السيرة ٥٣٤، ثم ٤١٦، ٤١٨، ٥٢٤، ٥٢٨، ٥٣٠.

(2) قابل بها في ابن الأثير: النهاية ٢: ٥٢، ٤: ٩٣.

(3) ابن هشام: السيرة ٦١٣؛ وكانوا يتخذون العسكر من الأزد أحياناً، وهم يمنيون، راجع أسد الغابة ٣: ٢٣٨.

حوادث السيرة إلى الأخذ بالقصيدة وإدخالها في مجموعتهم، وهاك الآن جواب حسان، أو كعب، في النقيضة[١]، ويهمنا منه بيته الأخير خاصة:

| | |
|---|---|
| سُقتم كنانة، جهلاً، من عداوتكم، | إلى الرسول، فجند الله مخزيها |
| أوردتموها حياض الموت، ضاحيةٌ، | فالنار موعدها، والقتل لاقيها |
| أنتم أحابيش جُمِعتم بلا نســبِ | أئمة الكفر غرَّتكم طواغيها! |

وأن لفظ (الأحابيش) الوارد في البيت الثالث يظهر غريباً نادراً في الشعر الجاهلي وفي شعر صدر الإسلام نفسه[٢]، ولهذا لفت نظر أرباب الحديث منذ أقدم عصورهم.

ومما تجب الإشارة إليه أن كثيراً من العلماء[٣] لا يزالون يتصورون أن الحديث الإسلامي ينشأ موازياً لتطور المذهب القرآني، فيرتكز على سلسلة من الأخبار والحوادث راقيةٍ مباشرةٍ إلى النبي، مستندة . في حلقات صحيحة متتابعة معدلة . إلى طائفة من الصحابة حفظت لنا المجاميع الإختصاصية، كأسد الغابة وإصابة ابن حجر، تراجم حياتهم المتضخمة بالروايات والأساطير، المتكتفة بآراء الجامعين بل برغبات

---

[١] ديوان حسان ٦١: ١-٢.

[٢] فلا يظهر إلا في قصيدة لكعب بن مالك (ابن هشام: السيرة ٦١٤) وفي قصيدة لشاعر من غفار (السيرة ٨٠٤) إن كانت صحيحة النسب.

[٣] وقد يتّلم بعضهم بإسقاط العهد المكي، راجع رأي ولهوسن في Berceau, I, Introduction, VIII.

وميول القبائل المختلفة، وكلها حريصة على أن يكون لها من يمثلها بين أعيان الإسلام الأول، على أن هذا التصور لا يقوى على النقد.

وقد كان لنا أن نعرض له في شيء من التبسُط[1]، فنبين ما في بناء الأحاديث من وهن وتضعضع وتكلُّف، وما كان يرمي إليه من غاية هي تفسيرية عقائدية قبل كل شيء، لا تاريخية ولا جغرافية. وها نحن نرى برهاناً جديداً لرأينا السابق في هذا البحث. ومما لا شك فيه أن غيرة التابعين على تأليف حياة للنبي جعلتهم ينصرفون باهتمام وحماسة إلى درس الآداب الجاهلية. فأقبلوا يجمعون تلك الأشلاء المتفرقة من الآثار القديمة فيؤلفون بينها ويوافقون، وإذا بها تخرج دواوين سوية للشعراء القدماء. وإذا بهم يستغلونها مواد صالحة لتأليف سيرة الرسول. وهم في استغلالهم هذا، ما كانوا ليغفلوا تلك المقاطع الشعرية الهجائية المتداولة بين مسلمي الجيل الأول منسوبةً إلى غير واحد من أولئك الذين كانوا (يناضلون عن رسول الله)[2]، وأشهرهم المثلث المدني: حسان، وكعب، وابن رواحة.

على أنهم توقفوا هنيهةً في شروحهم واستنتاجاتهم أمام لفظة (الأحابيش) الغريبة، فأخذوا يقابلون ويوافقون ويخرّجون. ونحن نعرف لهم اليوم هذه الجهود باطلاعنا على مجموعات (غريب الحديث) فنتحقق كيف توصلوا فرأوا في اللفظة تعبيراً فنياً عسكرياً كانت

---

[1] في مقالنا Quran et Tradition: comment fut composie la vie de Mahomet extrait de Recherches de sciece religieusc, I 1910.

[2] راجع أسد الغابة ٣: ١٥٧، ٤: ٢٤٨.

تستعمله قريش للدلالة على جنودها من كنانة. ولا يخفى ما في هذه الشروح من التزلف إلى المكيين بالإشارة إلى إقرار سيطرتهم القديمة. أما غاية الهجاء المدني – سواءٌ أكان حسان أم كعب أم ابن رواحة – فتظهر بعيدة عن هذا الشرح والتخريج. لقد أولى اللفظة . هو وحده . معناها الحقيقي المتداول في ذلك العصر. فإليه وحده يجب أن نستند في فهم هذا المعنى.

يقول في بيته المذكور آنفا، أن ذاك الجيش الذي ألفته قريش، . إلى محاربة النبي . يمثل حشداً من السود، يسيرون بضجتهم وجلبتهم متجمعين، دون ترتيب، فهم أقرب إلى (الأحابيش) عبيد أفريقية منهم إلى الرجال الأحرار، إلى العرب الخلص الذين يجتمعون لنداء الدم، بفضل النسب، فيحتشدون حول الراية مدافعين عن قبيلتهم[1]. ولا يخفى ما هناك من توافق بين هذا القول واللهجة الشاملة في القطعة الهجائية، وما فيه من تلميح دقيق ينال، ضمناً، من تعصب سادة مكة أعداء النبي وأعداء الأنصار. والمعروف عن حسان أنه كان ينبغ في هذا النوع من الهجاء (فيقبل على الأنساب)[2] والأعراض، ولهذا مال أكثر النقاد إلى جعله هو صاحب القصيدة المذكورة آنفا، لا كعباً ولا ابن رواحة.

---

[1] هذا معنى: (جُمعتم بلا نسب)، ويرى التقليد أن (النسب) خاصة العرب وحدهم، أما الارتباط والأعاجم فيُعرفون بالنسبة إلى قريتهم.

[2] أسد الغابة ٤ : ٢٤٨.

ويمكن أن يفيدنا ابن هشام شيئاً في تأليفه الظاهر الاهتمام بالدقة التاريخية[1]، فيمهد لنا السبيل لحل مقبول. يميّز هذا المؤلف، بل يدوّن. على الأرجح. ما رآه في الكتب التي نقل عنها من تمييزٍ بين (أحابيش) قريش، وحلفائها العسكريين... فيقول (اجتمعت قريش باحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة..)[2]، ولنحفظ هذا التمييز المهم، منتقلين إلى نصوص تبدو أوضح وأوفر دلالة على ما قدمنا. هي نصوص دونها الواحدي، والطبري، والواقدي[3]، وفي بعضها ذكر جيش (استأجر (صاحبه) ألفين من الأحابيش.. سوى من أجاب له من العرب)[4]، وهناك نصوص غيرها يُميز فيها بين الأحابيش ومأجورة بني بكر من الغفاريين. ولا يهمنا، في هذا، أن يكون كلّ الجماع والمؤرخين دققوا في الفرق بين الحبيشين، أو أنهم خلاف ذلك لم ينتبهوا للتمييز، فخلطواا بين الأحابيش ومأجورة العرب. إنما المهم أن يكونوا قد نقلوا هذا التمييز عن الروايات القديمة، شأنهم في كل ما يؤلفونه على ذاك الأسلوب التقليدي الإسنادي في تدوين التاريخ القديم. ولقد كان

---

(1) من مظاهر الاهتمام بالدقة التاريخية في سيرة ابن هشام جهد المؤلف في تمحيص الشواهد الشعرية، والإشارة. وأن كان بطريقة خفية. إلى شكه في صحة بعضها.

(2) ابن هشام: السيرة ٥٥٦؛ قابل بها في ٦٧٥؛ الواقدي ١٩٩؛ الطبري ١: ١٣٨٤، ١٣٨٥، الأغاني ١٤: ١٢؛ ابن سعد: الطبقات ٢: ٤٧ (أحابيشهم ومن تبعهم من العرب)، السمهودي: الوفاء ١: ٢١٤.

(3) راجع الحاشية السابقة وأنظر ابن الأثير: الكامل (الطبعة المصرية) ١: ٣٤٧، كنانة جميعها والأحابيش.

(4) الواحدي: الأنساب ١٧٧، قابل بها في الطبري ١: ١٦٣٥.

من فضل هذا الأسلوب – على ضعفه ونقصه ودلالته على الابتدائيات في فن الكتابة – أنه سهل علينا الوصول إلى النصوص الأصلية[1].

ينتج من كل ذلك. على ما نرى أن مجموعة الوثائق في الموضوع. المنظمة في القرن الأول للهجرة. كانت تشير إلى وجود عناصر غير بدوية في قوات مكة العسكرية، وهكذا كانت وحدات (الأحابيش) تتألف. دون شك. من جنود سود. على أن هؤلاء الأحباش كانوا يختلطون بالبدو، بعدد من المقاتلة عربي الأصل، أقل سواداً من أبناء حام. ولقد ذكرنا من هؤلاء، في بدء مقالنا الأول، من كان العرب يدعونهم بالخلعاء، والصعاليك، والفتاك، واللصوص، والشياطين[2].

وأكثرهم من بني كنانة لجأوا إلى أرض الحرم، حول مكة، ولم يكن لهم من عمل إلا انتظار أول طالب فيؤجرونه سيوفهم ونبالهم. وليس ببعيد أن يكون من هؤلاء الشذاذ أولئك المغامرون الملحقون بكتائب قريش، والذين يشير إليهم قدماء المؤرخين عندما يذكرون رجال القبيلة (ولفها)[3]. يأتي بعد ذلك رجال القبائل المجاورة لمكة، وقد دعاهم وقتياً إلى حلفها وحدة الأصل والرغبة في السلب ولقد كان سادة قريش

---

[1] وذلك على خلاف طريقة ابن خلدون التي يرمي فيها إلى الجمع بين (الروايات) المختلفة والتوفيق بينها، ليجعل منها كلها رواية واحدة متتابعة الأقسام.

[2] راجع (مشرق السنة الحالية، ص ١–٢).

[3] الواقدي ١١، ٢٠١، ٢٠١، ٢١٣؛ الأغاني ١٩: ٧٦؛ العقد ٢: ٤٧؛ وقابل بها في الأغاني ١٩: ١٧؛ ويجب أن نضيف (العضاريط) كما في أسد الغابة ٤: ٣٨٢؛ الأغاني ١٩: ٧٥؛ أبو زيد: النوادر ٥٤؛ الجاحظ: كتاب الحيوان ١: ٢٢، ١٧٧.

يأخذون من هؤلاء البدو . أحلافٍ ومجاورين . رجال القيادة والترتيب أو رجال الملاك العسكري، كما نقول اليوم، فيعهدون إليهم تنظيم شؤون ذاك الجيش الأسود.

فاتسع . إذ ذاك . مدلول لفظة (الأحابيش) حتى أطلقت على أفراد الجيش أنفسهم، وعلى من كان يديره ويقوده من الموظفين أو الضباط العرب[١] وهذا على نحو ما نرى في أيامنا من أن لفظة الكتائب السنغالية، أو (العسكرية) (askari) تطلق، لا على أفراد تلك الكتائب الأفريقية وحدها، بل على من يديرها، ويدبرها، ويقودها من الضباط الأوربيين، ويجب ألا ننسى ما يدل عليه لفظ (الأحابيش) من كثرة الحاميين المستعبدين في مكة إذ ذاك، وهو أمر توضحه النصوص المشيرة بصراحة إلى أن أمثال وحشي[٢]، وصواب، وأبي رويحة، كانوا (من سودان مكة) أو (من عبدان أهل مكة).

وقد كان لهؤلاء الأحابيش . في نظامهم المحدد . سيد خاص يُدعى (بسيد الأحابيش) يقوم بالقيادة العليا، ويكون عربياً من تهامة، منتمياً . في الغالب . إلى بني كنانة[٣]. إلا إذا كان رجال العسكر البيض كلهم من خزاعة، فيجب إذ ذاك أن يكون (السيد) خزاعياً[٤]. وهو تقليد كان

---

(١) ولهذا رأينا عدداً من البدو الخلص، يدعون (بالأحابيش).

(٢) وهو اسم كثير الانتشار بين (سودان مكة).

(٣) ابن هشام: السيرة ٢٤٥؛ العقد ٢: ٤٧.

(٤) الأغاني ١٩: ٧٦؛ أسد الغابة ٢: ١٦.

معروفاً قبل أن تحالف الخزاعيون مع محمد[1]، ولا يخفى أن المنافسة بين القبيلتين المشهورتين بتغذية جيش (الأحابيش) برجالهما، وهما غفار واسلم، كانت تبلغ أشدها أحياناً، فتضطر السلطة إلى تعيين (سيدين) للأحابيش من كل قبيلة سيد[2].

ولم يكن مركز السيد المذكور باهين، ولم يكن السيد نفسه بالمتساهل أو المتغافل عما يوليه منصبه من سلطة، وشموخ، وصراحة في الكلام تتجاوز أحياناً إلى القحة، لا يهاب احداً من أمثاله البدو، ولا من القرشيين أنفسهم، وإن يكن أبا سفيان. بل تراه لا يتنازل عن زهوه، ولا يخفي تلك العنجهية العابثة، النازعة إلى الاستقلال بالرأي والانفراد بالعمل، الماثلة من أشهر خصائص البدو[3] نفهم ذلك إذا ما عرفنا أن أرباب (البطحاء) من سراة قريش، وقد كان لهم وحدهم حق عقد المجالس والأندية في (فناء) الكعبة[4]، دُفعوا إلى مشاركة بني غفار هذا

---

(1) وبعد المخالفة أيضاً، لأن الحلف لم يشمل جميع بطون خزاعة (أسد الغابة ٢: ١٦)، بل أن منهم. كبني المصطلق. من حاربوا النبي فكسرهم شر كسره.

(2) ابن الأثير: الكامل (الطبعة المصرية) ١: ٢٤٨، ويذكر الأغاني (١٩: ٧٩) سيداً للأحابيش قتل في الحرب.

(3) ابن هشام: السيرة ٥٨٣، وقابل بها في ٢٤٥-٢٤٦.

(4) وهو معنى التعبير الجاري: (وقريش في أنديتهم) أسد الغابة ٢: ٢٥٧؛ ابن هشام: السيرة ٢٠٢؛ ثم أسد الغابة ٤: ٥٥، ٥٦، ٥٨، وقابل بها في كتابنا La Mcciqme la veille de l'higire, p. 87.., 136.

الحق، لما قام به هؤلاء من خدمات جليلة فيأثناء الحروب المتتابعة[1]

هذا، ويظهر من تاريخ السنوات الست الحافلة بالوقائع المطردة بين النبي وأقاربه المكيين أن (سيادة) الأحابيش كانت تنتقل من واحد إلى واحد؛ فلا تطول مدة (السيد) في منصبه، والسبب أن المكيين . على حاجتهم إلى معرفة أولئك البدو . لم يكونوا ليغفلوا عما يتصف به سادة القفر من نزوع إلى الاستبداد بالسلطة، وميل إلى العبث بالأوامر، فكانوا لا يدعون السيد منهم مدة طويلة على رأس الجيش خوفاً من سيطرة عسكرية. وهكذا عملوا على إضعاف نفوذ السيد، إلا في ما خص قيادة الجيش في أثناء الحرب، قيادةً زمنية وقتية. وهو ما تشير إليه النصوص القديمة بقولها: (وكان يومئذٍ سيّد الاحابيش)[2].

---

[1] أسد الغابة، ٣: ١٥٠- ولم يكن لبني خزاعة، على ما لهم من ممثلين في مكة، شيء من هذا الحقّ في فناء الكعبة، والسبب أن القرشيين، لو سمحوا لخزاعة بشيء من ذلك، لتعرضوا لخطر تقدر مبلغه إذا ما عرفنا أن خزاعة كانت صاحبة السدانة في الكعبة ومعابد مكة، قبل أن يغتصب قصي منها هذا الحقّ، وإذاً فهي لا تزال تأسف لضيعته وتحن إلى ماضيها الغريب.

[2] أبو سعد: الطبقات ٢: ٧٠، الأغاني ١٤: ٢٠، ١٩: ٧٩؛ ابن هشام ٢٤٥، ٧٤٢، العقد ٢: ٤٧، وكان من أشهر أولئك السادة (سيد القارة) البخاري، الصحيح (طبعة Krechl) ٢: ٥٩؛ والقارة بطن من كنانة مشهور برماته Wustenfeld, Register 119، الطبري ١: ١٥٣٨، أسد الغابة ٣: ٢٠٧، ويظهر فيها أن القارة من أسد خزيمة، قابل بما في ابن هشام ٢٤٥.

ولا يخفى أن هذا الترجح في المنصب، وهذه المراقبة الغيرى من قبل القرشيين لمن أوضح الأدلة على التقاليد الديمقراطية، وعلى تنبه المكيين وحذرهم المتيقظ[١].

ثم أن هؤلاء التجار الحاذقين كانوا أبعد من أن يغفلوا عما قد يجرّه ذاك الجيش الأسود المسلح من خطر ، إذا ما تُرك دون رقابة ولا ضبط، وهم لم ينسوا بعد ما تنصف به جدود أحابيشهم، أبناء مملكة أكسوم القرية، من بطش وتنكيل، عندما اكتسحوا الحجاز، عام (الفيل) فاحتلوا مكة نفسها.

تلك الذكريات . على غموضها . كانت جديرةً بأن تثير في أذهان السودان المتقلقلة نزعات قد تكون شديدة الخطر على أهل مكة. ولا يخفى أن مملكة الحبش. إذ ذاك. كانت دولة حربية شديدة الوطأة، لا تزال تتحيّن الفرص للعودة إلى التدخل بشؤون جزيرة العرب[٢]، هذه الدولة التاريخية القوية، الطموحة غير تلك الدولة الحبشية الوهمية، المتولدة من تصورات جماع كتب (الصحيح)، يحكمها نجاشي ميال للإسلام[٣]، له أخ يأتي المدينة متطوعاً لخدمة النبي[٤].

---

[١] مسلم: الصحيح ١ : ٤٨٦.

[٢] راجع كتابنا La Mecque, 290.

[٣] ابن هشام ٧١٧.

[٤] أسد الغابة ٢ : ١٤٤، ٥: ٢٧٣.

يفيدنا التاريخ أن رجال الدولة الحبشية كانوا ينازعون المكيين أنفسهم ـ وفي مدينتهم مكة ـ تجارة الهند، وكان أسطولهم يسيطر على البحر الأحمر، لهذه الأسباب وما يماثلها كان القرشيون شديدي الحذر من رجالهم السود، فعملوا على ضبطهم بانشاء ذاك النظام العسكري الذي أشرنا إليه، فأحاطوا الأحابيش بعدد من الضباط والقواد العرب مسؤولين عن إخلاص رجالهم وطاعتهم، وهو ما قام به أولئك (السادة) من بدو تهامة، ولقد كانت من غاية القرشيين. فضلا عن ضبط الأحابيش ومراقبتهم ـ هي أن هذا النظام يعزز العاطفة الوطنية في أولئك البدو، فيدفعهم إلى الالتفاف حول قريش، متناسين أحقادهم وثاراتهم.

ولم يختص (الأحابيش) بسيدهم المستقل فقط، بل كان لهم، فضلا عن ذلك، رأيتهم الخاصة، يحاربون وراءها إلى جانب القرشيين[1]، وكان لهم أيضاً ميزيات متعددة مدونة كتابةً في معاهدة تنص بالتفصيل على كيفية معاونتهم للجيش القرشي، وعلى مدة خدمتهم العسكرية، وما يتمتعون به من حصانات وامتيازات، وما يتقاضون من مرتبات مقررة، حتى إذا أراد القرشيون أن يتملصوا من تنفيذ شيء من هذه الشروط، هاج الأحابيش فذهب سيدهم، وأنذر رؤساء قريش باحترام شروط الحلف والمعاقدة[2]، مطالباً لرجاله بحقهم من الحماية والمتعة في أرض

---

[1] الواقدي ١٩٩، ٢٠١.

[2] قائلاً: (حالفناكم وعاقدناكم...) الطبري ١: ١٥٣٩- يذكر ابن جبير في رحلته (Travels 97, 131) أن حرس أمراء مكة الخاص كان في عصره مؤلفاً من السودان،

مكة[1]، وكان العرب من (الأحابيش) أعلق ببدويتهم من أن يتصاغروا للحضريين من أهل مكة، هم يعاونوهم في الحرب؛ ولكنهم لا يرضون بأن يعاملهم المكيون معاملة المأجورين، فوجب على أهل مكة أن يسترضوهم دائماً، ولا سيما (سادتهم) لئلا يثوروا ويثيروا الجيش معهم، أو لئلا (ينفروا بالأحابيش) كما كان يقال[2].

كل ما تقدم من التفاصيل يقودنا بالفكر إلى قرطاجة، إلى البندقية، إلى تلك الجمهوريات التجارية التي تشترك مع مكة الجاهلية في الكثير من مظاهرها. ولا يجد الباحث صعوبة في أن يستخرج من النصوص المتعلقة (بالأحابيش) موادا صالحة لتأليف رواية قرشية لا تبعد في شيء عن سالمبو (Salammbu) فابن جدعان، وأبو سفيان[3]، وغير واحد من زملائهما (الأشراف) سراة (البطحاء)[4]، يحلون بسهولة محل أبطال

---

ولم تكد الحالة تتغير من ذاك العهد إلى يومنا، راجع Burckhardt, voyages H 152, 328, 329 ثم L.Roches, Dix ans a travers plsiam 1834- 1844, p. 110.

[1] أسد الغابة ٢: ١١٦.

[2] وهو معنى: (لأنفرن بالأحابيش) ابن سعد، الطبقات ١: ٧٠.

[3] قابل بها في الأغاني ١٩: ٧٥.

[4] لا تختص لفظة (البطحاء) بالدلالة على (مجرى السيل) إنما تفيد أيضاً (الحصى) أو (الحصباء) قابل بها في أسد الغابة ٤: ٤٢(فبحث بيده في البطحاء) نذكر هذا لتسوغ شرح هوبير في رحلته Ch, Huber, voyage dans L'arabie contrale extrait du Bail, soc, ceogr, de paris 1884-1885 فنرد على نقد وجهه إليه قلم التحرير في المجلة المذكورة آنفا، ولا شك في أن هوبير، المتضلع من اللهجة البدوية، دوّن الشرح الذي سمعه في ذاك المكان، فلم يخطىء القصد مستعملاً (الشامل بدل المشمول) كما نرى

فاريير من أمثال أميلكار، وهانون، وغيرهما، وفي تلك البيئة الجاهلية الخليعة، التي كثيراً ما شكا القرآن من عبثها وفساد أخلاقها، لا يندر أن يرى الباحث واحدة من (ذوات النطاقين)[١]، العديدات، تقوم مقام بطلة الرواية المذكورة آنفا[٢] فالمحيطات يتشابهن بسيطرة الماليين من أرباب التجارة، وأصحاب رؤوس الأموال، وبحاجتهم جميعاً إلى حماية الجنود المأجورين.

ولنترك هذه الذكريات القديمة الغارقة في غموض التاريخ الجاهلي، منتقلين إلى مظهر حديث في الجيوش العصرية لا يخلو من شبه بنظام الأحابيش. هو نظام الفرق الإيطالية المعروفة (بالعساكر) askaris أو نظام جيوش المستعمرات.

وفيها يكون الجنود من السودان، أما ضباط الجيش فمن البيضان، كما كان جيش الأحابيش، إن جاز لنا أن نطلق لفظة البيضان على بدو الحجاز السُمر الألوان. وقد أشرنا إلى أن جميع الضباط والقواد والموظفين في ذاك الجيش الأفريقي، من المدعوين بالسادة، والرؤساء،

---

في تعليق المجلة، وليقابل ذلك أيضاً بهذا التعبير في أسد الغابة ٤: ٧٢ (أناخ الأبطح ثم كوم كوماً من البطحاء) وبها في السمهودي الوفاء ١: ٩٤، ٢: ١٦٤؛ ابن الأثير، النهاية ١: ٨٣، ٤: ٢٢٨، شيخو: شعراء النصرانية ٧٧١.

[١] راجع كتابنا Fatima p.5.

[٢] ولنشر. بهذه المناسبة. إلى أولئك الفتيات البدويات اللواتي كان يعهد إليهن، في ميدان الحرب، بحفظ القبة المقدسة أو بيت الحجر المؤله ، أطلب بحثنا في Le elute des betyles dans L'Arabie occidentale avant L'begire p. 112-124.

والعرفاء، كانوا كلهم من العرب ولهم وحدهم الحق (بالانفال) أو أسلاب العدو[١].

وقد كان من الطبيعي أن تفكر قريش لتعيين هؤلاء الضباط بمن كان يلجأ إلى حرمها من الخلعاء والمتشردين كالبراد، وأبي الطمحان، وحاجز، والحرث بن ظالم، فتسلحهم[٢] وتعينهم على رأس أحابيشها. ولما كانت (الحرب خدعة)[٣]، ولما كان أشهر ما عرفوا به من الصفات الخداع والجرأة، كان لابد من أن يتكل عليهم رجال الملأ، أو مجلس القبيلة الأعلى، فيتنادون من أنحاء الجزيرة، ويؤجرون الملا سيوفهم، متضجرين من إقامتهم بالسكينة والراحة في أرض الحرم[٤] ولم تكن مكة لتجهل قيمة مساعديها هؤلاء، فلا تبخسهم حقهم، بل تعاملهم معاملة الضيف الكريم والجار العزيز، وأن أساء الجوار[٥]، فتغض النظر عن

---

[١] وقد يعد السادة عبيدهم بالاعتاق، إذا ما انتصروا، كما جرى لوحشي في أحد، وهو ما كان يجرى عليه في جيوش النبي أيضاً، أما المقاتلة من الأحرار فكان لهم الحق بسهمهم في الاسلاب.

[٢] الأغاني ١٠: ٢٨.

[٣] راجع .Berceau, I, 248 وكثير من هؤلاء الحلفاء كانوا يسبقون الجواد في ركضه، أسد الغابة ٥: ١٧٨؛ Berceau.i, 248 وتراجم النصوص تتوسع معجبة بهذه الحيل.

[٤] كأبي الطمحان، راجع .Berccau, I, 172

[٥] قابل بما في الأغاني١٩: ٧٥ عن موقف البراد في مكة، وكيف جر القبيلة، بأفعاله وتعدياته، إلى حرب الفجار.

المساوىء، وتنعم عليهم بلقب (حلفاء قريش)، وهو لقب يجر منافع مادية، وواجبات حربية[1].

وكان من فضل هذا التدبير أن يشغل هؤلاء الشذاذ، فيصرف .إلى طريقة نافعة.ميلهم الفطري للغزو[2].

ثم أن مكة كانت تستلحق غفاراً، وخزاعة، وغيرهما من القبائل البدوية البطاشة بما تدفعه لسادتها من مال، فتستخدمهم جميعاً في المحافظة على مصالحها الخاصة، قد لا يكون في هذه التدابير مظاهر جلية للشجاعة القرشية، ولا دلائل على جرأة أولئك الرأسماليين، ولكنها تشير إلى ما اتصفت به قريش من دهاء وحذق ومرونة في السياسة والإدارة، حتى أصبح من الأمثال الكلام على (أحلام قريش) و (حلماء قريش)[3].

أو هل نستغرب، بعد كل ما تقدم، ألا يكون مدونو (السيرة) قد تنبهوا على جميع هذه الأمور المتشعبة المتشابكة، وهم الذين أثرت فيهم العواطف القومية المتأخرة، فقادتهم إلى ضيق المجال في البحث

---

[1] راجع ابن سعد: الطبقات ٣، وكان حلفاء الأنصار العديدون من البدو يشتركون في (مشاهد) النبي، ولنكتف بالإشارة إلى حلفاء بلي، أسد الغابة ٣: ٣٣٧، ٣٤٧، ٣٦٩، ٣٩٨، ٥: ١٠٦، ١٤٤، ١٤٦، وهناك حليف ثقفي يحارب مع قريش في حنين، أسد الغابة ٤: ٧.

[2] راجع Berccau, I, 177.

[3] أسد الغابة ١: ٣٧١، ٥: ٢١؛ حلم أبي سفيان، في الأغاني ١٥ ١١.

والتصور، وإلى الإيمان الدائم بسيطرة قريش[1] حتى في العصر الجاهلي أو هل نستغرب أن يكون المستشرقون أنفسهم أخذوا بهذا العمل، فظلوا مدة طويلة لا يشعرون بضرورة النقد الدقيق في درس أصول ذاك التاريخ[2].

ولقد عرضنا لهذا الموضوع في كتابنا (فاطمة وبنات محمد) (ص ٢٩) فأوردنا تحفظات قليلة في ما خص تلك الأعمال التي تفوق قدرة البشر العاديين، ينسبها المؤرخون، دون احتياط، إلى أبطال الهاشميين، ،ويمتاز الواقدي[3]. بين جميع مدوّني (المغازي) بأزدرائه كل قياس في مروياته[4]،أما الآن، وقد دققنا بعض الشيء في فهم المؤسسات العسكرية المكية، فنتساءل ألا ينبغي لنا أن نزيد من تلك التحفظات، ونستفيد من هذه الأبحاث التمهيدية في نظام مكة الجاهلية، مواد لنقد (السيرة) نقداً داخلياً، وقد قُيض لنا أن نبحث في (السيرة) في مقالٍ

---

[1] ولنا الأمثلة العديدة على الإيمان بهذه السيطرة القرشية، كقول ابن هشام: (كانوا إمام الناس وهاديهم) (السيرة ٩٣٢) قابل بها في ابن سعد، الطبقات ١: ٢؛ ابن الديبع: تيسير الوصول ٣: ١٠٨، وقد درسنا الموضوع في كتابنا عن (يزيد).

[2] قابل بها في C.de Perceval, Evai, I 253, sprenger, Mohammed, index s.v.Ahabis, Grimme Mohammed, I, 106, Cl Huart Hist des .Arabes, I, 144

[3] الواقدي ١٧٩– وفيه التعبير: (منعوني... من الأحمر والأسود) وقد يدل (الأسود) على الكتائب السودانية راجع Caetani, Ammali, II, indes s.v. Ahabis.

[4] لا يظهر الأمويون في كتابه إلا بمظهر يثير الضحك فالازدراء، مثلاً في ص ٢٦٨–٢٦٩ أما الهاشميون فكلهم، حتى النساء، على غاية الكمال، ص ٢٨١–٢٨٢، ٢٦٧.

نشرناه منذ ربع قرن بعنوان (عُمر محمد وطريقة التاريخ في السيرة)[1]، وقلنا فيه عن هذه المجموعة: (لا نرمي إلى طرح كل شيء، ويدل أن نقلب هذا البناء الضخم الذي عمل الحديث على رفعه، لنكتف بتفكيكه حجراً حجراً، فنفحص قيمة ما استعمل فيه من مواد، هو عمل ممل، ولكنه ضروري) ولنا الأمل بأن هذا البحث في (الأحابيش) يأتي ببرهان جديد يسوغ قولنا السابق، وعلى من تقع التبعة أن عمل هذا البرهان على إضعاف الثقة بتلك المواد الإسلامية القديمة؟

ثم إذا استندنا إلى الأقوال الرسمية المتداولة، نرى علياً ينشأ في كنف محمد، من عرفناه بميله طبعاً إلى السلم والطمأنينة[٢]، وإذاً فلم يكن لهذا المحيط الهادىء، محيط خديجة وبناتها[٣]، أن يعزز تلك النزعات الحربية التي نراها. بعد ذلك. في زوج فاطمة، ولا يخفى أنه كان آخر من هاجر ملتحقاً بالنبي في المدينة، وهو لا يظهر، قبل وقعة بدر، في أي معركة من تلك المعارك البسيطة، المعروفة بالغزوات، التي كانت تحدث من وقت إلى وقت فتبدد شيئاً من ملل العهد الأول، عهد الاستقرار في المدينة، إذا استندنا إلى هذه المعلومات، وكلها مستقاة من (السيرة) ومن أجدر كتب (الصحيح) بالثقة، فلا نرى ما يسوغ ذاك الإنقلاب السريع في أطوار الهاشمي الشاب، ولا كيف انتقل من حياة

---

(1) L'age de Mahomet et la chronologie a siro Hour asiat, 191, 209-250.

(٢) راجع Fatima, p. 23 وقد استغلت الشيعة هذا القول لتحل، بين علي وأبي بكر، مشكلة (أول من أسلم) راجع كذلك ترجمة علي في أسد الغابة ٤: ٦٦-٦٨.

(٣) Fatima, p. 2 وفي القرآن (٣٣: ٩٥): (قل .. لبناتك) وهو يفرض اثنتين في الأقل.

هادئة خفية مدة السنين الأولى إلى حياة حربية يُظهر فيها. منذ أول معركة . ودون أن يمر بطور انتقال طبيعي، صفات فروسية عجيبة، ومهارة في العراك تفرض اختباراً وتمرناً طويلين[١].

شاء بعضهم أن يرى في تجارة القوافل دافعاً إلى النزعة الحربية في باعة مكة وسماسرتها، ومن ثم داعياً إلى تمرينهم على استعمال الأسلحة المتنوعة، وإننا لنود أن نشارك هذا البعض بقبول فرضية قد تظهر طبيعية، لو لم يكن القرشيون قد تخلصوا قديماً من الهم العسكري، في تنظيم القوافل، فعهدوا إلى غيرهم في حفظها والسهر عليها، كما رأينا. ولم تكن حادثة الحرث بن هشام المخزومي، المستقيل عن الحرب حباً لعائلته[٢]، بفردية في ذاك المحيط.

من الحق أن البدو كانوا ينتقمون لأنفسهم من الإهانات المتعددة اللاحقة بهم في مصارف مكة ومتاجرها، فيهزأون بجبن القرشيين، ويبالغون، ولكن من الحق أن تهكمهم وحده لا يكفي لتسويغ هذه الشهرة الواسعة اللاحقة بجبن أهالي مكة. وإلا فكيف أمكن أعداء محمد من القرشيين أن يتكلوا على أولئك البدو – وهم من عرفوهم بضعف الإخلاص والميل إلى النهب والسلب – في الدفاع عن مدينتهم وعن أموالهم؟ وكيف أمكنهم أن يظلوا مدة طويلة على هذه السياسة الشديدة الخطر؟

---

[١] ولقد انكر علي على هذا الاختبار، فيما بعد، راجع Fatima, p. 29 وكيف جرّب أن يدافع عن نفسه، الأغاني ١٥ :٤٥.

[٢] راجع الأبيات المنسوبة إلى الحرث بن هشام في السيرة ٥٣٣.

ولنا الشواهد العديدة على ضعف الإخلاص في البدو. نكتفي بالإشارة ـ في ذلك ـ إلى ما قام به بعض الخزاعيين والغفاريين من مصانعة النبي ومخالفته، بل التجسس له على القرشيين[1] بينما كان ذوو قرباهم من أبناء غفار وخزاعة يحاربون ـ مأجورين ـ في الجيش القرشي. ولنلاحظ أن مجموعات التراجم تتردد على الغالب في نسبة الصحابة البدو، تتردد بين غفار، وأسلم، وخزاعة[2].

وهناك رجل من مشاهير غفار، التحق أولاً بالأمويين ونال لقب حليف، ثم نراه يقتل ـ في سبيل الإسلام ـ لدى أبراج خيبر[3]، وليست هذه الحادثة بوحيدة من نوعها بل أن البدو ـ وكأنهم تعوّدوا هذا التقلقل السياسي ـ ينتقلون بسهولة من جيش إلى جيش على وفق لميلهم المتردد أو مبلغ أرباحهم المالية، وكثيراً ما كانوا ينالون بركات النبي في مساعداتهم له، كما نالوها كثيرةً، مدوّنة في كتب الحديث القانونية، لانخراطهم في الجيش المدني[4]. وإذا بقي من شك في تفهم خُلق القرشيين الحربي، ونفورهم فطرة من المعارك والمخاطر، نراه يتبدد إذا ما ألقينا لمحة دقيقة على ما اتخذه المكيون من تحفظات واستدراكات عدة خوفاً من مفاجآت

---

[1] ولا سيما بنو خزاعة: أسد الغابة ٤: ٣٩٠، وهناك غفاري يُطلع محمداً على بعث قريش، الواقدي ٢٠٢، قابل بها في Caetani, Amali, II, 1071, 1072.

[2] أسد الغابة ٣: ٣٤٤.

[3] اسد الغابة ٣: ٢٧٠ وكان الغفاريون عديدين في هذا الحصار.

[4] وقد استفادت أسطورة أبي ذر من هذه الحالة، أسد الغابة ٥: ١٨٧-١٨٨.

تقلب عليهم عسكرهم المأجور. ولم يكن رئيس ذاك العسكر يتردد في تهديد القرشيين[1]، إذا ما أبدى هؤلاء أقل معارضة.

ويجب ألا نتوهم وجود نظام عسكري مستقر بثكناته أو معسكراته، وكتائبه الدائمة. إنما الخدمة المأجورة[2]، أو الإتفاق، كان لمدة الحرب فقط، بل لمدة غزوة واحدة أحياناً. هذا إذا لم يترك البدو القتال قبل نهاية الإتفاق، فيفرون جماعات، أو ينتقلون إلى جيش العدو، نتحقق فيهم هذه النزعات الفوضوية بتاريخ حصار المدينة، وحوادث وقعة الخندق. أما زمن السلم، فكان الخلعاء ومن على شاكلتهم يعيشون في جوار مواليهم من أرباب المصارف القرشية[3].

وينتقلون معهم. في رحلاتهم من مكة. ليدافعوا عنهم، أو ليدافعوا عن أموالهم وتجاراتهم، وفي هذه الحالات كانوا يسافرون مع القوافل كما كان يفعل البراد. وهكذا كانت مهمة بني غفار وانسبائهم من بدو تهامة أن يحفظوا التجار، ويسهروا على القوافل القرشية، يؤجرون أربابها أبلهم وسيوفهم بثمن باهظ بعض الأحيان.

أما شأن الأحباش، أو سودان أفريقية، فكان يختلف عن شأن البدو، كان السودان مفروضاً عليهم خراج، أو ضريبة يومية، يؤدونها

---

(1) يهددهم بالانتقال إلى جيش النبي، الطبري ١: ١٥٣٩.

(2) أما في ما يخص عدد الجيوش فلا ينفق المؤرخون،فهذا الواحدي بذكر (ألفين) وابن سعد يشير إلى (أربعة آلاف) من الأحابيش والبدو (الطبقات ٢: ٤٧).

(3) كان الغرباء، في مكة، يتعلقون بخدمة الأشراف؛ أطلب أسد الغابة ٣: ٢٨٨؛ وعلى الغريب أن يلتجيء إلى أحد إما عن طريق (الحلف) أو عن طريق (الجوار).

إلى ساداتهم، وقد لا يصلون إلى تأديتها إلا بشق النفس والعمل المجهد في حوانيت المدينة.. وهم، فضلا عن ذلك، حاضرون مستعدون لتلبية مواليهم لدى أي طلب. وكان أكثر هؤلاء الموالي من سراة المخزوميين، أرباب الأموال الذين كانوا يستغلون تجارة الرقيق استغلالهم سائر مرافق الحياة الاقتصادية إذ ذاك. فإذا دنت ساعة الخطر، وسُمع (الصريخ) وهو صوت الإنذار[1]، كان يهتم القرشيون بتنظيم العساكر. وكثيراً ما تطلب هذا التنظيم الأسابيع الطويلة، بل الأشهر بكاملها، وهو ما حدث في بعثة أحد، فقد أضاع المستعدون سنة كاملة. وكان يقوم بالتجييش، أو التعبئة، بعض الأشراف أو كبار الصيارفة من أهل مكة، أولئك الواسعو العلاقات، الكثيرو المعارف والأصدقاء والأقارب[2] في القبائل البدوية فيذهبون من حي إلى حي في مجاهل تهامة ومناطق الفور، يستأجرون الرجال[3].

وقد يرتقون جبال السراة في جنوبي شرقي الطائف، ليستنزلوا الأزد، وهم من أشجع سكان الحجاز[4]. فيعدون الجميع بالمال الكثير

---

(1) أو (منذر الجيش) مسلم: الصحيح ١: ٢١٩، قابل بها في ابن الأثير: النهاية ٣: ٩٠، ٤: ١٢٦.

(2) ولقد كان من شيوخ البدو وسادتهم من يشاركون القرشيين بتجاراتهم، ومنهم من يصاهرونهم، راجع ابن هشام ٢٧٣، ثم Berceau, I, 289.

(3) ابن هشام ٥٥٦.

(4) هم حلفاء الهاشميين وغيرهم من أشراف مكة (أسد الغابة ٣: ٣٥٠، ٥: ١١١) وحلفاء أمية (أسد الغابة ٣: ٤٠٢) وقد شهد الحديث بشجاعتهم فورد:( نعم الحي الأزد والأشعرون لا يفرون في القتال ولا يغلون) (أسد الغابة ٥: ٢٣٩).

والأسلاب العديدة، ويرجعون ووراءهم مجموعة من الأبطال والصعاليك واللصوص، (حرشة الضباب) و (أكلة اليرابيع) قطاع الطرق[1] (وسراق الحجيج) بينما كان الباقون في مكة من السادة يهتمون بتسليح (الأحابيش)[2] وتنظيمهم، وهم. في تلك الأحوال. يسترضونهم بالأكل الطيب الذي لا يذوقونه في حياتهم العادية، فيطعمونهم الخزيرة، وهي حساء فيه من العجين ومن اللحم المقطع[3]. ولا تكاد تنتهي الحرب حتى تتفرق هذه الكتائب جميعها، وإلا فإن القرشيين يعجلون في تفريقها، كما جرى لهم بعد وقعة الخندق. ذلك أنهم كانوا يخافون من حرب داخلية تتلو المعركة، فلا تقل شدة عليهم من العدو الخارجي، لما قد يعرض أموالهم ومتاجرهم ومصارفهم وبيوتهم لطمع أولئك الشذاذ المسلحين. وإذاً فمن الضروري أن يعود البدو إلى منازلهم من سهول تهامة، والعبيد إلى معاملهم في المدينة. وكذلك تعود المطايا، وأكثرها الابل- لأن الخيل من خصوصيات السادة وحدهم[4]- إلى المراعي، أو

---

[1] كانت القوافل القرشية تمر بمنازل بني غفار (أسد الغابة ٥: ١٨٧).

[2] ابن الأثير: الكامل ١: ٢٤٧، الأغاني ١٩: ٧٧.

[3] ابو يوسف: كتاب الخراج ١٣٨؛ ولاسيما الجاحظ: البخلاء ٢٥٨، وقابل بها في ابن هشام ٢٧٤؛ من أن الخزيرة أكلة مكية، يطبخها الأنصار لمحمد في المدينة، أسد الغابة ٣: ٣٥٩؛ ٥: ٤٨٠، ٤٨١؛ ابن الأثير؛ النهاية ١: ٢٩١-٢٩٢، تطبخها فاطمة للنبي السمهودي ١: ٢٢٣، ٢٦٦؛ البخاري ١: ١١٠.

[4] اطلب Fatima, p. 82, Barceau, I, 137 ولم يتفق للعرب مرة بأن ضحوا بفرس للقيام (بالمفرقة) (أسد الغابة ٣: ٢٤٢) وهذا على خلاف ما يزعمه المحدثون، فيدلون على جهلهم بالحياة في القفر وبما يمثله الفرس في نظر سكان البادية.

إلى أصحابها من البدو الذين استؤجرت منهم؛ وتعود الأسلحة إلى مخازنها الخاصة في مكة.

ولم تكن هذه الأسلحة وافرة بل لم تكن كافية لجميع الأحابيش، كما قد يُستخرج من قول كعب بن مالك في موقعة أُحد- ولا نرى ما يحرج صحة قوله – مشيراً إلى

أحابيش منهم حاسرٌ ومقنع[1]

وقد يكون الخاسرون من أولئك المكلفين حفظ الأمتعة. إلا أن يقصد الشاعر رماة الحبش المشهورين باستعمال الحراب[2]، وهي آلات لا يقر العرب بأنها من أسلحة الحرب.

هذا،ولا يخفى أن وجود الجيش المسلح . وإن كان وقتياً . يفرض وجود مخازن للأسلحة في يد السلطة الحاكمة؛ نقول هذا مع شعورنا بصعوبة الاستدلال على وجود الإدارات العامة، والنظم البلدية، في مكة قبل الإسلام[3]. فليس، في كل ما بين أيدينا من النصوص إشارة واحدة إلى عمل الأسلحة والمعدات الحربية، ولا إلى حفظها، في تلك العاصمة التجارية،التي طالما أغدق المؤرخون على سكانها مجاناً صفات الشجاعة والبطش والفروسية. كانت تأتيها جميع الأسلحة من الخارج: من الهند، واليمن، والشام، فكان سكانها، من السراة خاصة، ومن ورائهم أهل

---

[1] ابن هشام: السيرة ٢١٤.

[2] أطلب القسم الأول من هذا البحث، ص ١٠.

[3] أطلب كتابنا .La Merque la veillr de L'begire, p. 62

البدو يتفاخرون (بمشرفيات) بُصرى[1] ،وبلاد أدوم أو (مشارف الشام) ولاسيما بالدروع النفيسة الثمينة التي كان يبلغ من افتخارهم بها، وحرصهم عليها، إنهم كانوا يتوارثونها أباً عن جد[2].

وقد بلغوا بثمن واحدة منها، مع الحسام، مبلغ مائة دينار[3]، وكان أكثر السلب قيمة، بعد وقعة بدر، بضع دروع[4] أصاب علياً واحدة منها حفظها حتى جعل منها صداق امرأته فاطمة بنت النبي. ويذكر الرواة أنه كان لصفوان بن أمية الجُمحي ثلاثون درعاً، فكان يُعد من أغنى أرباب المصارف في مكة[5].

لم يكن في مكة خزائن عامة للسلاح، إنما كان فيها خزائن خاصة، كل بطن، كل أسرة، كبني جمح وبني جدعان وغيرهم كان لهم مخازن

---

(1) ابن السكيت: تهذيب الألفاظ (طبعة شيخو) ١٦٥؛ الأغاني: ١١: ٩١، ١٢: ١٣٥، ١٣٦.

(2) قابل بما في القرآن ٢١: ٨٠، وفيه دورة تعبيرية للدلالة على الدرع: (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) وهؤلاء هم الشعراء يفخرون بقولهم أنهم (أكثر دروعاً صافيات) (أبو محجن Abel ١١: ٢٠١)؛ وراجع La Merque, p. 191. 204.

(3) أسد الغابة: ٥: ٩٣.

(4) الأغاني ٤: ٣٩، وكان لمحمد درعان، أو درع مضاعفة تغطي الظهر والبطن (أسد الغابة ٥: ١٨٤) والدرع سلاح وافر الثمن في بلاد العرب، أسد الغابة ٥: ٢٥٩؛ الأغاني ١٠: ١٤.

(5) ابو داود: السنن (طبعة الهند) ٢: ٦٩؛ ابن سعد: الطبقات ٢: ١٠٨.

ومستودعات يجمعون فيها الأسلحة[1] فيستعملونها، إبان السلم أدوات وأغراضاً للمقايضة، أو يسلحون بها حرس قوافلهم. وهكذا رأينا ابن جُدعان وحده يُسلِّح ألف بدوي من كنانة[2]. وتشير النصوص إلى أعداد عظيمة من الحراب والسيوف والدروع يحتفظ بها أرباب المصارف المكية. ومنهم صفوان بن أمية المذكور آنفاً[3]؛ ونوفل بن الحرث الهاشمي، ولم يكن مخزنه ليقل كثيراً عن مخزن صفوان. ونحن نعرف أنه افتدى نفسه من النبي - في معركة بدر - بألفٍ من الحراب[4]. ولم يكن النبي ليغفل عن هذه المستودعات الخاصة في مسقط رأسه، فاستغلها كما استغل المصارف القرشية في تنظيم جيشه واستعداده لغزوة هوازن، فأخذ من نوفل وحده ثلاثة آلاف حربة[5].

---

(1) الطبري ١: ١٦٥٩، ١٦٣٠؛ الواقدي ٢٥، ٢٦؛ ابن الأثير: الموضع المذكور آينفا وكذلك كانت الحالة في الطائف؛ أبو محجن: الموضع المذكور آنفا.

(2) الأغاني ١٩: ٧٦، ٧٨؛ الواقدي ٢٠٢.

(3) ابن حنبل: السند ٣: ٤٠١، ٦: ٤٦٥؛ أسد الغابة ٣: ٢٢، وهذا خالد بن الوليد (جعل دوابه في سبيل الله) أبو عيد: الغريب (المخطوطة المذكورة) ص ١٠٠؛ ابن الأثير: النهاية ١: ١٩٥، ٢: ٢٠.

(4) اسد الغابة ٥: ٤٦ وقد كان مستودع أسلحته في جدة، وكان المسلمون، في أول عهدهم تعوزهم الأسلحة ولم يكن يصنعها إلا اليهود في يثرب. قابل بها في اسد الغابة ٣: ٤١٩ وهناك ذكر لعصاً يعطيها النبي أحد المتحاربين فتتحول إلى سيف (أسد الغابة ٤: ٣) وثلاثمائة درع وُجدت في دومة الجندل (ابن سعد: الطبقات ٢: ١٢٠).

(5) أسد الغابة ٥: ٤٥، ويذكر المصدر نفسه دروع خالد بن الوليد (اسد الغابة ٥: ٣٢٥؛ ابن الأثير: النهاية ٣: ٥٩-٦٠).

ولنعد إلى سياسة الحذر والتيقُّظ التي كان يقوم بها المكيون بالنظر إلى أحابيشهم وحلفائهم من البدو، فإنها تذكرنا بسياسة البيزنطيين تجاه معاونيهم من الغساسنة المكلفين بمراقبة الحدود السورية. وقد كان البيزنطيون، قبيل المعركة أو الغزوة، يفتحون للغساسنة مخازن دمشق[١] وبُصرى، فيسلحونهم، ويضاعفون ذخيرتهم العادية من الحنطة. حتى إذا انتهت الحرب نُزعت الأسلحة من البدو، وأُعيدت إلى مستودعاتها البيزنطية. تلك سياسة حكيمة دفع إليها اختبار البيزنطيين أخلاق البدو المضطربة المتغيرة، فحذروا منهم، واحتاطوا، وكانوا يبالغون في تلك الحيطة حتى أنهم كانوا إذا ما شكوا في إخلاص الغساسنة، قطعوا عنهم ذخيرة الحنطة نفسها[٢]، واقفلوا في وجههم حدود الإمبراطورية.

على نحو من هذه السياسة كانت سياسية القرشيين بالنظر إلى أحابيشهم وحلفائهم، إلا أن هناك استثناء في ما يخص (سيد الاحابيش) وبعض (الخلعاء) و (الطرداء) من الذين أُنعم عليهم بلقب (حلفاء قريش)، فإن هذا اللقب كان يوليهم، من الحقوق المتنوعة، حق الإقامة في مكة[٣]، ذاك الحق الذي نالوه بتضحياتهم العديدة، بل بدمهم يسفكونه في سبيل الدفاع عن تلك الجمهورية التجارية. وهؤلاء قتلى

---

[١] لم يرد ذكر لمدينة دمشق في النصوص العربية القديمة، إنما كان الذكر لبُصرى، وهي آخر محطات القوافل القرشية مما يلي الشام.

[٢] راجع Noeldeke, Die Ghassan, Furstcu, p. 29.

[٣] ولم يكن لينتزع منهم هذا الحق إلا تنازل رسمي يقومون به أمام الكعبة، راجع أسد الغابة ٣: ٣٨٦، ٤: ٥٤.

بدر فيهم العديد من (حلفاء قريش)[1]. فكان إذاً لسادة الأحابيش، ممثلي أولئك الغفاريين الفوضويين. مركز منظور إليه في مكة بل مقام شبه رسمي، وكان لهم ناديهم الخاص[2]، في النقطة المتوسطة في المدينة، في فناء الكعبة المقدسة، لا في ضواحي البلدة من (الشِعاب) و (الظواهر)[3]. وكان لهم حق الاشتراك بالاجتماعات القرشية، يتكلمون فيها بجرأة، وقد يفرضون إرادتهم، كما جرى لابن الدُجنة[4] إذ دافع عن أبي بكر فاتخذه تحت حمايته، عندما وجد عليه قومه بسبب ما اظهره من الميل للدعوة الإسلامية قبل الهجرة[5]. وإبان مفاوضات الحُديبية، نرى القرشيين يختارون سيد الأحابيش فيوفدونه إلى محمد مندوباً مفوَّضاً، وذلك وقت كانت فيه مكة تحاول، بهذه المداورات السياسة، ستر عجزها الحربي في كفاح النبي. وإذ رأت نفسها مضطرة إلى عقد الصلح، ولما لم تشأ أن تُرسل لمفاوضة محمد أحد أشرافها القرشيين، فتدلّ بذلك على اضطرابها وحاجتها إلى السِلم، عهدت إلى رئيس معاونيها وحلفائها من البدو، وهو (سيد الأحابيش) واسمه حُليس بن علقمة. وقد وصفه

---

[1] ابن هشام ٥٠٧.

[2] كان للأسر الاستقراطية انديتها الخاصة قرب الكعبة، ابن هشام ٨٣٣، ٩٩٣؛ ابن سعد: الطبقات ١: ١٣٧.

[3] وفيها كانوا يحشرون السوقة ورعاع القوم؛ الأغاني ١: ١٥٩.

[4] أو الدحينة، اطلب ابن هشام: السيرة ٢٤٦، والاسم مضطرب الضبط.

[5] ابن هشام ٢٤٥-٢٤٦؛ البخاري: الصحيح ٢: ٥٩؛ وهذا حلبس يلوم ابا سفيان بنبرة قوية في أُحُد؛ الأغاني ١٤: ٣١-٣٣، قابل بها في ابن سعد: الطبقات ٢: ٧٠.

لنا التاريخ الرسمي رجلاً تقياً (يتألّه)[1]، وهي صفة نادرة جداً في بدو تهامة الأجلاف. وبينما كانت المفاوضات تجري بصعوبة، كاد أحد موفدي النبي في مكة يلاقي حتفه لولا تدخل بعض بني قومه من خزاعيي الأحابيش[2].

وكان سكان مكة، إذا ما ارتحل عنهم جيش الأحابيش وسائر المأجورين من العسكر، بدل أن يتنفسوا الصعداء لتخلصهم من هؤلاء الشذاذ الفوضويين، كانوا يتوجسون خوفاً ويعتريهم القلق إذ يرون المدينة. ولا حامية فيها. عرضة لأول غازٍ[3]. هكذا كانت عاطفة السكان من القلق، بعد أن ارتحلت عنهم تلك الكتيبة المأجورة المنظمة، على غاية ما يمكن من السرعة، المرسلة لنصرة قافلة بدر. حتى اضطُر أحد سادة البدو إلى تهدئة الخواطر في مكة[4]، ومع هذا، فلم يكن قد ذهب من (الأحابيش) إلا عدد قليل لم يقو القرشيون على جمع أكثر منه، فالحقوه بسادتهم المسرعين إلى مكان الحادثة. أما الباقون فلم يكن موقفهم على شيء من الوضوح بالنظر إلى تلك الحرب الجديدة. أيبقون على عهدهم لمكة؟ أم تغويهم التجارب فينضمون لبدو الجوار ويهجمون منتقمين من هذه المدينة التي طالما أهانتهم وأغاظتهم بمطامع أهليها،

---

[1] ابن هشام: السيرة ٧٤٢-٧٤٥؛ الطبري ١: ١٥٣٨-١٥٣٩؛ الأغاني ٤: ١٩؛ ابن سعد: الطبقات ٢: ٧٠، وفيها أن حُليس (كان يتأله) وأبو يوسف في كتاب الخراج (طبعة مصر) ٢٤٨ يدعوه ابن الحُلس.

[2] الواقدي ٢٥٣؛ ابن هشام ٧٤٥-٧٤٦ الطبري ١: ١٥٤١؛ اسد الغابة ٢: ١٦.

[3] ولم يكن فيها شرطة بلدية. راجع... La Mecque, p. 64.

[4] ابن هشام ٤٣٢؛ الطبري ١: ١٢٩٦ الواقدي ٣١-٣٣.

ومظاهر ترفعهم وازدرائهم؟[1] فكان للمكيين. والحالة هذه. ملء الحق بأن يخافوا، ويحاذروا، قلقين مضطربين كلما فكروا بتلك الأحقاد المتزاحمة المتداعية في المعامل، والمصانع، ومحلات الأشغال الشاقة المنتشرة في ضواحي المدينة التي ملأت العبيد من سودان وغيرهم، وبمن حولهم من (الأباقين)[2] المتغلغلين في مجاهل تهامة ومطاوي الغور. حتى إذا قام فيهم رجل أبرز شخصية من عامتهم، كأبي بشير[3] مثلاً، التفوا حوله، ولجأ إليهم فضخم عددهم كثيرٌ من المظلومين، من ضحايا النظام الاجتماعي في مكة، من (المستضعفين) على قول (السيرة)، ومن أولئك الذين لا يرضيهم نظام فيقضون الحياة مفتشين عن غيره، متفائلين بأي انقلاب كان. ثم ينتقل هؤلاء جميعهم إلى المدينة، فيستقبلهم النبي، ويُرسلهم في (حرب العصابات) كما نقول اليوم، فيقطعون الطرقات ويسلبون المسافرين، ويقتلون سادتهم بالأمس[4]، (لا يظفرون برجل من قريش – على حد قول ابن هشام – الا قتلوه، ولا يمر بهم عِير إلا اقتطعوها)[5]، على وفق ما عُرف من التقاليد المتقادمة في بني غفار!

---

[1] الأغاني ٨: ١٩٠، ١١: ٨٩، ٩٥: ١٢: ٣٥.

[2] كان الكثير من العبيد يلجأون إلى الهرب، (فيأبقون) تاركين سادتهم في حسرة وهم؛ أسد الغابة ٥: ٥٣٠.

[3] وقد تحول (صحابياً) فاستغلته (السيرة) لتضخيم الحادثة.

[4] النسائي: السنن ٢: ١١٣.

[5] ابن هشام: السيرة ٧٥٣؛ أسد الغابة ٣: ٣٦٠، ٥: ١٥٠، وهناك ذكر لكثير من السودان والعبيد الأباقين اللاحقين في أسد الغابة ٤: ٣٦.

ومما كان ينشر الذعر بين المكيين في تلك الأحوال الاضطرابية، اعتقاد قديم متداول بين القرشيين، ومحفوظ صداه في عدد من الأحاديث، مفاده أن الكعبة يهدمها الأحباش[١]، وقد ظل هذا الاعتقاد راسخاً حتى في الإسلام، فحاول ابن الزُبير، بعد الهجرة بسبعين سنة، أن يستأصل هذا الوهم من عقول المكيين، فلجأ إلى خطة ساذجة مضحكة عندما أعاد بناء الكعبة[٢].

أما ما يهمنا من الأمر فهو ما يدل عليه من صدى بليغ في أذهان العرب لانتصار الأحباش عليهم؛ ومن ذعر تملك في عقول المكيين لدى رؤية هؤلاء السودان بالسلاح الكامل. كانوا يحذرون، في ما لو نزل رجال النجاشي على ساحل تهامة، أن يلتحق بهم أبناء قومه من الأحابيش. وهو فرض لم يكن من الغرابة في شيء[٣].

أو لم يهجم. بعد ذلك. عدد من الأحباش على ساحل مكة في حياة النبي؟[٤]. أو لم تتعدّد هذه الغزوات بعد وفاة النبي، فيضطر عمر بن الخطاب إلى إرسال حملة خاصة على بلاد الحبش، فتهلك كلها[٥].

---

[١] الأزرقي ١٩٣؛ Cbromle u ابو داود ٢: ١٣٣؛ ابن الديبع: تيسير الوصول ٣: ١٣٠ ابن الأثير: النهاية ٢: ١٩٣، ٢٦٤ ٤: ١٨٨.

[٢] السيرة الحلبية ١: ١٨٣، Cbroniken, III, 81.

[٣] راجع الأزرقي ١٩٣-١٩٤.

[٤] ابن سعد الطبقات ٢: ١١٨.

[٥] اسد الغابة ٤: ١٤.

أو لم يقل النبي من حديث: (لا تبعثوا الرابضين الترك والحبشة. أي المقيمين الساكنين، يريد: لا تهيّجوهم عليكم ما داموا لا يقصدونكم)[1] ولا يخفى ما في ذكر الترك إلى جنب الحبش، من إشارة إلى دور الأتراك المقبل في جيوش الخلافة العباسية، وهو أشبه بدور (الأحابيش) في الجيش القرشي.

يظهر من كل ما تقدم مركز مكة الحرج بالنظر إلى أولئك العساكر المأجورين الذين كانت تتكل عليهم في الدفاع عنها، وتحذر سيطرتهم عليها، إذا ما مكنتهم الظروف، يظهر كذلك تجرّد المكيين عما يُنسب إليهم عادةً من صفات الشجاعة والبطولة. وهو ما يزيد حكم اسطرابون منذ العصور القديمة، وقد قال: (العرب تجار وسماسرة)، ولكنهم من أضعف الجنود[2] وقد كان لنا أن نشير إلى هذه النتيجة في بحثٍ سابق[3]، وها أننا نساق إليها اليوم في درسنا النظام العسكري في مكة.

ويبدو لنا أن النبي أدرك هذا الأمر وقد وقف بنفسه على نظام الأحابيش الفاسد. ولم يرَ خيراً في التهوّر بحروب عقيمة، فنصح قومه بأن لا يلجأوا إلى السلاح إلا وهم على ثقة من إحراز النصر، وإلا فعليهم بالسعي في الصلح. أما إذا كانوا على نصر فلا صلح ولا سلم.

---

[1] ابن الأثير، النهاية ٢: ٥٩، أبو داود ٢: ١٣٣؛ ابن الديبع ٣: ١١٠، قابل بها في السيوطي، الموضوعات ١: ٢٣١-٢٣٢.

[2] جغرافية اسطرابون ١٦: الفصل ٤، الرقم ٣٣.

[3] Berccau, I, 191 وقابل بها في أرميا ٣: ٢.

وهو معنى الآية: (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون)[1] وقد رأى النبي أنه قد أدرك هذا التفوّق الحربي، بعد معاهدة الحديبية، وكان قد عمل على استمالة القبائل التي كانت قريش تتخذ منها ضباط الأحابيش[2]، فاستمال أولاً بني خزاعة، من عرفنا حقدهم على قريش، ثم بني غفار[3] وأقربائهم من كنانة. وكان أنه قد جرّب شجاعة هؤلاء، في حصار خيبر، غاضاً النظر عن وجود النساء الغفاريات بين العسكر بصفة بائعات وممرضات[4]، حتى إذا ما استفاد من هذه التجارب وأيقن ضعف المتمولين القرشيين، ويأسهم من الحرب بعد أن تُركوا وشجاعتهم الخاصة، عزم على أن يضرب مسقط رأسه الضربة القاضية، فينال (فتحاً مبيناً)[5]، بل (فتح الفتوح) كما يقول الحديث.

---

[1] القرآن ٤٧: ٣٧؛ وقابل بها في ٣: ١٣٣.

[2] وقد شغل أبو رهم الغفاري منصب عامل المدينة مرتين (أسد الغابة ٥: ١٩٧؛ ابن هشام ٨١٠، ٩٠٥).

[3] السمهودي ١: ٥٤٧،وفيها أن النبي قد أعطاهم أرضاً في المدينة، وهناك ذكر لمسجد وأرض غفارية في المدينة (السمهودي ٢: ٥٤٧-٥٤٨) ومرافق غفارية في خيبر (أسد الغابة ٥: ٥٧٦).

[4] ابن هشام ٧٦٧-٧٦٩؛ اسد الغابة ٥: ٤٠٥،وهو الشرح الرسمي في الحديث الإسلامي، راجع كتابنا في .Bityles, p. 123

[5] القرآن ٤٧ :١.

وكان من نتائج هذا الفتح أنه جعل مكة ولاية متعلقة بحكومة المدينة، فاضمحل جيش الأحابيش[1] وما إليه من نظام عسكري قديم، بل اضمحل اسم (الأحابيش) بعدئذٍ في تاريخ المدينة القرشية.

---

(1) ولكن لم تتلاش الكتائب السوداء من الجيوش الإسلامية، وهناك عدد كبير من السودان في بلاد العرب (جغرافية المقدسي، ٩٥) وأكثر العبيد في الحجاز من الحبش (ابن الأثير: النهاية ١: ١٥٩) وحرّاس مسجد المدينة من الأحابيش (السمهودي ١: ٤٩١) وفي بعض كتب الحديث مدح صارخ للجيش، كما في السيوطي: الموضوعات ١: ٢٣٠، وكنز العمال ٦: ٦١٤ العدد ٣٧٣٨، وفيه (قسم الشجاعة عشرة أجزاء فقسمه في السودان وجزء في سائر الناس) كذا وظل الحجازيون يستخدمون العبيد في الحرس الرسمي حتى عصرنا هذا، فكان حرس الشريف الأكبر من السودان، قال عنهم ديديه: (وكان من الضروري ظهور وجوه الأبنوس هذه كي لا يظهر العرب سود الوجوه تماماً) Didier .sejour cber Grand Cherif, p. 244

# النصارى في مكة

# قبيل الهجرة

# معلومات وملاحظات

من مزاعم ولهوسن أن الدين الذي أحدث أثراً فعالاً في الإسلام الأول إنما هو الدين المسيحي لا اليهودي[١]. (وأن النساك النصارى وضعوا الجرثومة الروحانية في الإسلام. وأن الخميرة لا تأتي من إسرائيل، إنما قام إسرائيل، على الأكثر، بتقديم الطحين الذي زيد فيما بعد)[٢].

وقد قُيض لنا أن نرد على هذا الزعم في بحث طويل. فلا نعرض اليوم إلا لسرد البراهين التي أدلى بها ولهوسن دعماً لنظريته، على ذاك الأسلوب الآخذ من المطالعين، حتى اليوم، بما يبدو عليه من طمأنينة

---

(1) Wellhausen, Reste arabischben Heidentutns, 234.

(2) Ibid, 242.

وهدوء. ولنقل، منذ الآن، ما قال ليسنسكي من أن تلك البراهين (لا تقوى على نقد علمي)[1].

من الحق أننا نرى محمداً، في مكة، يميل إلى الروم في حروبهم مع الفرس[2]، ولكن أي غرابة في ذلك؟ أو لم يكن الفرس من المشركين في نظر المبشر بوحدانية الله؟ بيد أن ولهوسن[3] يرى غريباً أن يُستنتج، من هذه الحادثة وحدها، تميزٌ واضح صريح في ميول النبي الموحدة، ومن ثم أن يُحكم بأن هذه الميول تصرفه إلى إسرائيل عن أرباب النصرانية.

أما الحقيقة فإن هذه الميول تشمل أهل (الكتاب) جميعاً، أي اليهود والنصارى، وقد كان النبي قبل الهجرة، يرى أنه يعمل معهم في إقرار وحدانية الإله، كل في محيطه الخاص. وإذاً فليس من عجب أن يظهر ميله إلى الروم، (خلافاً لموقف اليهود الواضح)[4]. ولم يكن له ما كان لليهود من أحقاد على الإمبراطورية الرومية، تراكمت مدة السنين المتطاولة، فولدت ذاك البغض المتأصل. بل أنه كان يرى، مخلصاً، أن على (الكتابيين) أن يتفقوا في الشؤون والمسائل المهمة، كما كان يرى أنه متفق معهم في ذلك. فكل ما في (سورة الروم) إنما هو ميلٌ إلى جماعة من

---

(١) Leszynske, die judeu in Arabien zur zeit Mohammeds ولو اهتم المؤلف بدرس الحديث درساً مرتباً لأفاد كثيراً.

(٢) السورة ٣٠ [الروم] ١ و ٢.. (آلم غلبت الروم في أدنى الارض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون..).

(٣) وكذلك ونسنك (Der Islam II, 286) فإنه يرى الرأي نفسه تقريباً.

(٤)

أرباب التوحيد ليس غير[١]. هذا قبل الهجرة، أما بعدها فإن موقف يهود المدينة يدفع النبي إلى كثير من الإيضاح والتمييز.

ويقول ولهوسن: (لا يمكن، بأي حال، أن نتحقق النفحة اليهودية في تلك الآيات التي يضع فيها القرآن يسوع فوق أنبياء العهد القديم)[٢].

ليس من شك في أن القرآن يجعل من المسيح شخصية لطيفة جذابة، بل أنه يجعلها ألطف الشخصيات في تلك المجموعة العجيبة من الأنبياء[٣]. ولكن الثابت أيضاً أن النبي الذي أحدث الأثر العميق في عقلية محمد فجذبه إلى السير على طريقه، لم يكن عيسى بن مريم. إنما هو إبراهيم، إنما هو موسى. هذان الأسمان العظيمان في تاريخ إسرائيل، يعجب بهما نبي العرب، ويفهمهما حق الفهم، ويتوق إلى التشبه بهما[٤]

---

[١] ولقد كان هذا الميل حقيقياً بأن يوجه إلى اليهود، لو كانوا في حرب مع المشركين.

(2)Wellhausen , Reste, 236.

[٣] وهناك شخصية أخرى من شخصيات العهد الجديد يظهر أن الإسلام الأول يحار فيها، هي شخصية يحيى، أي يوحنا المعمدان، الذي ظل (حصوراً) راجع كتابنا Fatima et les Filles de maboniet, 32.

[٤] راجع Adaptation, 170 واطلب في النسائي ١ : ٧٧ أسطورة المعراج، وفيها يظهر إبراهيم وموسى فوق يسوع بدرجات، ويدعو إبراهيم محمداً (بابنه) أما سائر الأنبياء فيعدونه (أخاهم).

يحدق إليهما، ويتأملهما، فلا يحتاج إلى تحفظ في أعجابه بهما، ولا إلى احتجاج على شيء بما يخصهما[1].

ونحن، إذا استثنينا ذكر العجائب التي قام بها المسيح – والعجائب من دلائل الوحي في نظر النبي- لا نرى وجهاً للشبه بين يسوع القرآن ويسوع الاناجيل. في القرآن لا يظهر عيسى إلا واحداً من أنبياء اليهود، لا هم له إلا التضييق من سعة رسالته، والتخفيف من مجد ولادته الباهر، وبهاء عجائبه الساطعة. ولا يمكن أن تكون هذه الشخصية الهزيلة الناحلة، المضطربة حتى في تحديد نفسها، مستوحاةً من المصادر المسيحية[2]. ولا يعترض علينا بما ورد في القرآن من نعوت نصرانية يُنعت بها المسيح (كروح الله) و (الكلمة). فإنه لا وجه للشبه بين مدلول هذه الألفاظ في القرآن، ومدلولها في نص يوحنا الذي استُعيرت منه. ولهذا فإننا لا نتراجع عن القول إنه (وأن استعمل التعبير النصراني، فلا يفتأ يفكر تفكيراً يهودياً)[3].

---

(1) كما قد نشعر بموقفه تجاه المسيح، مما جعل هنري دي بورنيه يقول عن لسانه:
Je mourrai mieux que tos ta mort fut trop sublime. O Jesus, H. de Bornier, Mahomet, II, sc. 6.

(2) راجع: Adaptaliom, 178

(3) Adaptaliom, 176-177 وكذلك البطريرك اليعقوبي ميخائيل يقول في تاريخه ٢: ٤٠٣، أن محمداً تأثر أولاً باليهودية.

أما ذاك العطف الصريح على المسيح وعلى المسيحيين، البادي أكثره[1] في السور المدنية، فقد يكون أداةً من أدوات الجدل دُفع النبي إليها في عراكه، بعد الهجرة، مع يهود الحجاز[2]، فشاء أن يميز نفسه عن إسرائيل، بعد أن أكثر من الميل إليه، في ما سبق.ولا يبالغ ليسنسكي[3] في شيء عندما يقول له ان اسم يسوع – بصورته الغريبة (عيسى)[4]- لا يظهر مرة واحدة في السور المكية القديمة، وقد احتلتها كلها تقريباً ذكريات إبراهيم وموسى وقصصهما. بل أننا لا نرى ذكراً لأحد أشخاص العهد الجديد إلا في السورة التاسعة عشرة. ففيها تبدو، لأول مرة، أسماء مريم، وزكريا، ويحيى، وعيسى. أما تاريخ هذه السورة فيرده أرباب التفسير الإسلامي إلى الهجرة الحبشية. وقد يكون النبي عرف هذه الأخبار باختلافه إلى مستوطني مكة من أولئك اليهود. النصارى الحبشي الأصل، وطني (الأحابيش) المشهورين[5]، عبيداً كانوا أو عمالاً، سماسرةً أو تجاراً، ولقد كانوا من الكثرة بحيث انتشروا في أحياء مكة

---

[1] بل كله إذا صح أن الآية في السورة ٢٢ (الحج) ١٧ مدنية، أطلب (نصارى) في فهارس القرآن.

[2] درسنا هذا الوقف في مقال خاص عنوانه Les Juifs a la Mecque a la veille .de L'begire

[3] .OP, CIT, 40

[4] ومن الصعب أن ندل على أصل الاسم في النصوص المسيحية راجع Horovitz .koranische Untersucbungen, 1926, p. 128-129

[5] راجع بحثنا في (الأحابيش) في المجلد السابق من (المشرق). ولقد كان في جيوش النبي نفسه عدد من المأجورة السودان (ابن سعد: الطبقات ٢: ٩٠) وقابل بما ورد في الجاحظ: الحيوان ٣: ١٢، وانتبه للفظة: (سودانك!).

جميعها انتشارهم في سوقها. وكذلك القول عن (الإنجيل) فإننا لا نرى ذكراً له إلا في السور المدنية[1]، بينا نرى الذكر السابق للتوراة والزبور[2]. وأن لهذه الملاحظات أهميتها، إذا ما أردنا قدر مظاهر العطف والميل إلى النصرانية البارزة في القرآن، وبالتالي قدر المبالغة بل التخيّل في مزاعم ولهوسن. ولهذا فإننا لا نرى في هذه المظاهر رغبة من النبي في الارتفاع إلى مثلٍ أعلى يفوق مثل أنبياء العهد العتيق. بل أن هذا المظهر المسيحي في القرآن، الظاهر متأخراً عن زمن الهجرة، لا نراه يرمي إلا إلى الرد على اليهود الذين خيبوا آمال النبي. أو لم يستحقوا ذلك (بكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً)[3].

ويستند ولهوسن[4] فوق هذا، إلى اسم (الصابىء) الذي تستعمله (السيرة) وكتب (الصحيح) للدلالة على المسلمين الأولين[5]. وهو يرى فيه إشارةً إلى المندائيين وغيرهم من أرباب النحل المعمدانية في آسيا الغربية. أما نحن فنرى في استعمال الصابىء، والصابئة، والصابئين،

---

[1] ولا شك في أن السورتين ٤٨ (الفتح) و (٥٧) الحديد متأخرتان عن الهجرة.

[2] لنراجع هذه الألفاظ: الإنجيل، التوراة، الزبور، في فهارس القرآن.

[3] القرآن ٤ [النساء] ١٥٥، ومن الصعب أن لا نرى في هذه الآية إشارة جدلية ضد اليهود.

[4] Reste, 236.

[5] ابن الأثير: النهاية ٢: ٢٤٨. أما ذاك البيت الوارد في ترجمة لبيد (الأغاني ١٥: ١٣٨) وفيه:

وجئت بدين الصابئين تشوبه بألواح نجد، بعد عهدك من عهدِ

فالغرض منه، ومن الحادثة كلها، التدليل على قِدم ارتداد لبيد إلى الإسلام.

أسلوباً طالما استعمله (صوّاغ الحديث)[١]، سعياً وراء (النوادر) و (الغريب)، وغايتهم إظهار مصنوعاتهم بمظهر القِدَم، وهو كاف بزعمهم لتصحيحها وتأييد نسبتها التاريخية. وأن هذا الأسلوب في صنع الأحاديث أصبح من الشهرة اليوم بما يعفينا من الإطالة فيه[٢]. ولا يخفى أن جماع كتب (المسند) و (السُنن) بعد أن أطالوا ما شاؤوا في استغلال لفظة (حنيف) و (حنفاء) رأوا أن يستغلوا كذلك لفظة قرآنية أخرى، فعلقوا (بالصابئين) يفسّرونها، ويعللون تفاسيرهم التعاليل المتشعبة. ونحن إنما يهمنا من كل ذلك الإشارة إلى أن عملهم أقرب إلى التفسير منه إلى التاريخ، وغايتهم أن يشرحوا بالحوادث، والأخبار، والأوصاف الواضحة، كل ما يرونه من تلميحات غامضة، ورموز ضمنية في بعض الآيات الموجزة، فيبددون الإبهام ويوضحون أمام القراء شيئاً من غموض بعض السور[٣]. وهذه لفظة (الركوسية)[٤]، اسم نحلة نصرانية

---

[١] ابن الأثير: النهاية ٣:٥ وقد يكون اللفظ منقولاً عن أبي هريرة، وهو من أرباب الحديث المكثرين المتهمين (راجع كتابنا عن فاطمة، ص ٥٥).

[٢] راجع Fatima, 27 وتجد في صحيح مسلم ٢:٥٤٠- ٥٤٣ مثلاً يكثر فيه (الغريب) وغيره في Califat de Yazid, Ier 345 ويذكر ابن الأثير (النهاية ٣:١٤٥) نوعاً من الأحاديث (مما يؤمن به وبامثاله ولا يُدخل في كيفيته).

[٣] راجع ما قلناه في مقدمة (فاطمة) وقابل بها في الذهبي: ميزان الاعتدال ٢:٢٢٦، ٣٣٩، من ذكر تأليف أخبار وحوادث لتوضيح بعض الآيات الغامضة، وراجع كذلك في كتب (الصحيح) كل المقاطع المبدوءة: (باب في قوله تعالى..).

[٤] راجع عدة مقالات عن الركوسية للآباء انستاس الكرملي، وشيخو، ولامنس، ظهرت في المشرق ٦ (١٩٠٣) ٥٧٤، ٧٧٧، ٩٣٨؛ ٨ [١٩٠٥] ٥٠٤؛ ١٠ [١٩٠٧] ١١٣٠؛

شرقية، لا تظهر إلا في حديث عدي بن حاتم. فلو وردت في القرآن، لما تأخر أرباب الحديث من تأليف إضبارة خاصة تجمع كثيراً من الأقوال والأخبار[1] تصطبغ بطلاء تاريخي شفاف وترمي إلى توضيح اللفظة والتبسُّط في شرح ما تدل عليه. وإذاً، فلم يكن بدٌّ من أن يلفت لفظ (الصابئين) نظرهم، وهكذا كان، على أنهم بدل أن يفكروا بالمندائيين في بابل – ولا يظهر أن القرآن عرفهم قبل الهجرة[2]، لأنه لا يذكر الصابئين في القرآن[3]، وهي تميّز بينهم وبين اليهود والنصارى. على أنها تورد ذكرهم كأنهم من الموحدين يؤمنون بالله وباليوم الآخر، موافقين معتقدات الإسلام الأول. فلم يكن إذاً ما يمنع المفسرين أن يحوّلوا لفظة (الصابئين) إلى نعتٍ يُجرون استعماله في عهد النبي، للدلالة على أول الدائنين بالإسلام.

ولم ينتبه ولهوسن لهذا الأمر، على رغم ما عرف من خطأ سبرنكر ووهمه في شرح لفظة (حنيف)[4]، ولقد كان جديراً بهذا الخطأ المشهور

---

١١[١٩٠٨] ٤٨٠؛ واطلب: اسد الغابة ٢٩٣:٤٨٠، وقد ورد على الهامش: (الركوسية دين بين النصارى والصابئين، كذا في النهاية).

(١) كما فعلوا بشأن الجملة الخاصة بالعسل وأن (فيه شفاء للناس) القرآن ١٦، النحل ٧١، راجع كتابنا .Taif, p. 40

(٢) بل قد لا يكون عرفهم بعدها، لأنه ليس ما يثبت أن المقصود بالصابئين المندائيين لا غيرهم من أرباب أي نحلة شرقية.

(٣) القرآن ٣ [البقرة] ٥٩؛ ٥ [المائدة] ٧٣؛ وهي مراجعة للآية السابقة؛ ٢٢ [الحج] ١٧، والآية مدنية، راجع: .Noldeke- schwally, Geschichte des Qorans, 214

(4)Reste, 238.

أن ينتبه ولهوسن إلى تجنب الوقوع في مثله. كما كان جديراً بولهوسن ألا ينسى أن عادة الوضوء لا ترقى إلى ما قبل العهد المدني، وأنها مأخوذة عن يهود يثرب[١]، وهو المقر (بأنه لا يمكن الدلالة على وجود الوضوء عن المندائيين)[٢] وإذاً فماذا يبقى من تلك القرابة المزعومة بني المندائيين، و (صابئي) القرآن، والمسلمين الأولين.

وأننا لا نقف طويلاً لدى لفظة (حنيف)، وهي آخر ما يعلق به ولهوسن من الأسانيد، ظاناً أنه يأتي بشيء جديد في استغلال قيمتها، بقوله أنها تعني (النساك والزهاد من النصارى)، وليس في هذا الزعم ما يثبت على النقد، وأن يكن المؤلف يسنده إلى ترجمات جريئة لبعض النصوص القديمة. ولقد كان لنا، في ما مضى[٣]، أن أوضحنا رأينا في وجود (الحنيفية) التاريخي، وبيّنا أن هذه الفئة من أجرأ مخترعات أرباب الحديث وجامعي حوادث السيرة، محاولين سدّ الثُلم الواهية في التاريخ الديني قبل الإسلام، وإيجاد أنظمة ورعية لدين إبراهيم القديم، ومن ثم إيجاد سابقين مؤمنين للدين الإسلامي. وقد كان لهذه اللفظة أن صادفت حظاً عجيباً بفضل المفسرين الغُيُر. أما في القرآن فلا نراها إلا نعتاً بسيطاً تفيد معنى المؤمن الصادق، بل معنى الموحد على الغالب. ولهذا نراها تردف كثيراً لفظة (مسلم). ولا نرى أنها دلت، مرة واحدة، على نحلة أو

---

(١) اسد الغابة ٤: ٣٢٣، ٢٢٤.

(2)Reste, 238.

(٣) راجع أبحاثنا: Mahomet fut- il simcere? P. 14, La chronologie de la stra, p. 229, Califat de Yazid, Adaptation.

فئة خاصة من البشر. قد يوافقنا المطالع على هذا الرأي، وقد يخالف. إلا أنه لا يسعه إلا القول معنا أن كل الأمثلة التي يوردها ولهوسن[1] قد يحل فيها معنى (المشرك) محل المعنى الذي يفرضه هو، دون أن يتأثر النص الإجمالي، بل قد يكون معنى (الشِرك) أوفق لهذه النصوص، ولا يبعد أن تكون لفظة (حنيف) في القرآن، انحرفت عن معناها الأصلي[2]؛ مع الاحتفاظ بشيء من ذاك المعنى قد يبدو لمن يألف نصوص القرآن ألفةً نقدية. ولهذا، لا أراني مغالياً إذا قلت أن معنى الآية التي كثيراً ما نراها مرددةً على هذا الشكل أو ما يقرب منه: (كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين)[3] لا يعدو أن يترجم بما يلي: كان موحداً مسلماً، ولم يكن له علاقة بالمشركين، وإلا لما بقي من معنى للتعبير (وما كان ....) سوى أن يكون مراجعة نافلة، وليس كذلك.

---

(١) Reste, 236-240 ويثبت المؤلف أن لفظتي (راهب) و (حنيف) مترادفتان، ولا مستند له إلا نص واحد يُسمى فيه (راهباً) أبو عامر المدني، على أن الحديث يطلق اللفظة، دون تمييز، على أفراد من اليهود، بل قد يطلقها على بعض المشركين، كما سنرى. راجع، بشأن الترهب عند الحنيفية، ابن الأثير: النهاية ٣: ١٨-١٩.

(٢) Noldeke, Neue Beitr, zur semit, sprachwissenscbaft, 23 .etc...

(٣) أطلب القرآن ٣ [البقرة] ١٣٩؛ ٣ [آل عمران] ٦٠، ٨٩؛ ٤ [النساء] ١٣٤؛ ٦ [الأنعام] ٧٩، ١٦٣؛ ١٠ [يونس] ١٠٥؛ ١٦ [النحل] ١٢١، ١٢٤؛ ٣٠ [الروم] ٣٩. ويجدر بالذكر أن لفظة (حنيف) تظهر خاصة في الآيات المدنية.

وهناك مستند أخير يظهر أضعف مما تقدم ذكره. وهو الدليل المستنتج من ذكر اليوم الآخر[١] ولا نعرف لماذا يودون أن يأخذ القرآن هذه الفكرة عن النصارى، لا عن اليهود!

ثم أننا لا نرى دليلاً يجعل للإسلام الناشىء وجهةً زهديةً أو نسكيةً؛ كما ادعى ولهوسن[٢]، وكما وافق، أو كاد، كولد سيهر[٣]. وقد تكون تلك العبادات الليلية الطويلة، التي تشد بذكرها السور المكية، صدى لعبادات النساك الشرقيين. وهي، كيف ما كانت الحال، لا تعدو التوسيعات الخطابية في مثالٍ أعلى للحياة الدينية تصورّه النبي، ولكنه لم يعمل[٤]، ولا صحابته، على تحقيقه في القريب العاجل[٥]. بل أن

---

[١] وقد اتخذ هذا المستند ونسنك أيضاً في كتابه المذكور آنفاً.

[2] Reste, 241.

[٣] وقد كان النبي ميالاً إلى النوم بشهادة أرباب الحديث، الدارمي: المسند (الطبعة الحجرية) ٥؛ ابن حنبل: المسند ١: ٢٤٥، ٣٤٣، ابن الأثير: النهاية ٣:١٨٧؛ النسائي: السُنن ١:١١١، ١٦٨، ٢٨٠-٢٨١؛ الذهبي: ميزان الاعتدال ٣:٣١٥؛ البخاري: الصحيح (طبعة الاستانة) ١:٣٧، ٤٣،٤٤، ١٧١؛ ٧:١٤٧.

[٤] وقد كان النبي ميالاً إلى النوم بشهادة أرباب الحديث، الدارمي: المسند (الطبعة الحجرية) ٥؛ ابن حنبل: المسند ١: ٢٤٥، ٣٤٣، ابن الأثير: النهاية ٣:١٨٧؛ النسائي: السُنن ١:١١١، ١٦٨، ٢٨٠-٢٨١؛ الذهبي: ميزان الاعتدال ٣:٣١٥؛ البخاري: الصحيح (طبعة الاستانة) ١:٣٧، ٤٣،٤٤، ١٧١؛ ٧:١٤٧.

[٥] قابل، بشأن أحد الأحاديث في الموضوع، قول الذهبي في ميزان الاعتدال ١: ١٦٠: (حديث حسن غريب ولا يصح) وإذا ما راجع الدارس كتاب الصلاة في صحيح البخاري ٢: ٤١، تصوّر الجماعة الإسلامية الأولى لا تختلف في شيء عن جماعات الرهبان، تقضي لياليها في الصلوات والتراتيل... على أن أبا داود في السنن ١:١٣٠ يقرّ بأن هذه

الصلاة، وطرق القيام بها، لم تقرر نهائياً إلا في المدينة. أما قبل هذا العهد فقد كانت عملاً موصى به، ولكنه كان متروكاً لحرية الفرد يقوم به حيث شاء، ومتى شاء. ونعم القول قول كليتاني (أنه في أثناء العهد المكي لم يكن على المسلم، إذا ما استندنا إلى نص القرآن وحده، إلا أن يؤمن بالله، ويكفر بعبادة الأوثان. وما عدا هذا الإيمان الفسيح، لا نراه مقيداً بشيء من الفرائض الدقيقة[1]، بل له ملء الحرية في أعماله[2]، وإذاً فإن من يتصور الجماعة الإسلامية الأولى ساهرةً لياليها الطوال بالصلوات والتهجد حول النبي، يخطيء خطئاً تاريخياً بانسحابه على إثر أرباب الحديث[3]، ناسياً أن مؤلفي السيرة وكتب الطبقات كانوا يرمون، في تلك الأوصاف الجميلة للمؤمنين الأولين، إلى تجسيم المواعظ التقوية الواردة في السور المكية، وتحقيقها بالنوادر والحوادث الواقعية. أو لم يقر ولهوسن نفسه (بأن القسم المكي من السيرة قد غزته الأسطورة من جميع نواحيه)[4].

هذا، ولا نرى بدأً، في سبيل التمهيد لإيضاح شيء، مع هذه المشاكل المعقدة، من أن ندرس حالة النصارى وعددهم في عاصمة

---

الفرائض قد نُسخت. وهي لا تعدو وصف المثال الأعلى كما في تفسير الطبري ٢٩:٦٨، ١٣١.

[1] لا بالصوم، ولا بالصلوات الجامعة.

[2] Studi, III, 67.

[3] راجع أسد الغابة ٣:١٤٨، ١٦٢، ٣٥٩.

[4] Goiting, gelebrt, Ameiger, 1913, p. 315 وهو نص مأخوذ من نقد المؤلف لكتابنا في (فاطمة).

القرشيين، قبيل الهجرة. وأن لنا في تطورات فكرة النبي بشأن المبادىء والعقائد النصرانية، وفي اطلاعه المتأخر على معرفة المهم منها، لدليلاً على أن النصارى لم يكونوا في مكة جماعات مؤلفة، عندما رأى النبي أن يدعو قومه إلى عبادة الإله الواحد.

بيد أن في تاريخ اليعقوبي نصاً قد يوهم بضد ما نذهب إليه. وهو قوله: (أما من تنصر من أحياء العرب فقومٌ من قريش)[1] ولكن اليعقوبي لا يذكر من هؤلاء (القوم) إلا رجلين اثنين دانا بدين الإنجيل، وأحدهما ورقة ابن عم خديجة، من أكثر أرباب السيرة والتاريخ من ذكره على اضطرابهم في تحديد شخصيته[2]. وليس الاثنان بعدد خطير. ولا عجب فإن القرشيين الخُلص، تجار مكة الوافري الحذر، القليلي الإيمان، كانوا ابعد من أن يؤخذوا بالدين النصراني. فكانوا يكتفون، بما (وجدوا عليه أباءهم)- على قول القرآن[3]- من دين بلدي تقليدي قليل المؤنة والتكاليف. ولهذا ظل عدد النصارى ضئيلاً بينهم. من الحق أن جماع أخبار الصحابة يذكرون رجلاً باسم (شمعون)[4]، وهو اسم نصراني إن

---

[1] اليعقوبي: تاريخه (طبعة Houtsma) ١:٣٩٨ن وهذا التاريخ مجموعة مفيدة لدرس ادعاءات العلويين ونظرياهم، وأن يكن خلواً من النقد التاريخي.

[2] ابن هشام: السيرة ١٤٤، وهو يلقبه (بالقس)؛ راجع أيضاً البلاذري: أنساب قريش (مخطوطة باريس) ص ٦٤، وفي جامع الفوائد (مخطوطة برلين رقم ١٣٢٠) ٢: ١٤٤ قفا، ذكر لمناقب ورقة. وسنعود إلى درس هذه الشخصية الغريبة.

[3] القرآن ٥ [المائدة] ١٠٣؛ ٧ [الأعراف] ٣٧؛ ٢١ [الأنبياء] ٥٤؛ ٣١ [لقمان] ٣٠؛ ٤٣ [الزخرف] ٣١ و ٣٣.

[4] اسد الغابة ٣:٢٦٠ وفيه يقال أنه ازدي.

لم يكن يهودياً – وليس من عادة العرب، قبل الهجرة، أن يتسموا بأسماء العهد العتيق[1]- ولكن قرشيته ليست بثابتة[2] ولعله من أفراد تلك الوالي الأجنبية الطارئة على مكة في سبيل العمل والكسب. وقد رأينا بينها كثيراً من النصارى، ولا سيما في جالية الأحابيش العظيمة الخطر.

ولا يخفى أن المدينة القرشية تبعت، على مدة ما، ولاية اليمن الحبشية. هذا أرصن ما يمكن أن يستنتج من حادثة (الفيل) التي شهرها القرآن. على أننا نجهل كم دام ذاك الاحتلال الحبشي في أرض تهامة، وأن نكن على شبه ثقة من أنه أثر في مصلحة النصرانية، دين المحتلين. وهو أمر أدركه مؤلفو السيرة، بل بالغوا في إدراكه، فجعلوا رجال ابرهة كلهم من المندفعين في نشر الدين المسيحي حتى أنهم حاولوا هدم الكعبة. ولم يضمحل أثر النصرانية بجلاء الحبش عن مكة. فظل فيها عدد من العبيد، والعمال، والتجار[3]، فضلاً عن (الأحابيش).

---

[1] راجع Fatima 3 ابو تمام: الحماسة (طبعة مصر) ١:١٨٩.

[2] اطلب اسد الغابة ٣:٤، ولا يخفى أن جميع المتسمين بيوسف أو بيونس من الصحابة، (أسد الغابة ٥:١٣٢)عرضة لكثير من الشك في وجودهم. وكذلك القول عن المتسمين بابراهيم (اسد الغابة ١:٤٠ )فهم أما من موالي المدينة، وإما من المشكوك في وجودهم، إن لم نقل من المخترعين المزيفين. وهناك، قبل الهجرة، ذكر لرجل من المدينة اسمه أبو سليمان كانوا يهودياً أو نصرانياً دون شك؛ الأغاني ٤:٢٤ ولنعد إلى أسد الغابة فنرى فيه (٢:٣٥٠) عدداً من الصحابة باسم سليمان، وكلهم مخترعون أو محورة أسماؤهم، وكذلك القول عن المسمين باسماعيل (اسد الغابة ١: ٧٩-٨٠) ويحيى .. الخ.

[3] راجع أسد الغابة ٥:٤٧٥، ٤٨٨، وفيه ذكر للجواري السود في مكة. وواحدة منهنّ كانت ماشطة خديجة ٥:٥٨٤، وقابل بها في ٤:٣٢٠ من الكتاب نفسه.

وقد استفادت السيرة السيرة من هذا الأمر الواقع ما وفر لها حادثةً طريفة تزيّن بها طفولية محمد، على فقرها بالحوادث. وأن النقد لا يكاد يتصور ما قام به هؤلاء المؤلفون من جهود، وما كشفوا عنه من قوة خيال، في محاولاتهم لفت أنظار أقارب محمد إليه طفلاً وصبياً. ولا يخفى أن النبي قضى أيام صباه لا يتنبه له أحد من أهله من بني هاشم، وهم انفسهم لم يكونوا، قبل الهجرة، بالمحل ذي الخطر في المجتمع المكي. ولنا في بعض الأحاديث فلتات تدلّ على هم الرواة بسدّ هذه الثغر الواهية في حياة محمد الأولى، كما تدلّ على موضعه من النسيان وعدم المبالاة قبل إظهار نبوته. سأل يوماً عمر بن الخطاب زائريه، وقد ملأوا المجلس: (هل فيكم أحد وقع إليه خبر من أمر رسول الله (ص) في الجاهلية، قبل ظهوره)[1] فلم يسمع جواباً إلا من أعرابي عمره ١٦٠ سنة[2]. ولعل هذا من الأسباب التي دفعت التقليد الإسلامي إلى الأخذ بنوادر (المعمرين) وأخبارهم المستغربة[3]، متكلين على ذاكراتهم

---

(١) أسد الغابة ٣:٥٢.

(٢) كذا في أسد الغابة ٣:٥٣، ونشير هنا إلى أن رقم ١٦٠ كثير الورود في ذكر أعمار المحدثين. راجع الذهبي: ميزان الاعتدال ١:٨٠، ٢:١٠٧، ٣٥٤.. وأحياناً يبلغ الرقم ١٨٠ سنة، في الكتاب نفسه ١:١٠٦، ٢:٢٣٠.

(٣) Cbronologic de la sita, 214 ومن المفيد أن نشير إلى موقف الذهبي من هؤلاء المعسرين، وهو موقف شك وارتياب. راجع كتابه ميزان الاعتدال ١:٢٤٨، ٤٣٤، ٣:١٢٥.. وانتبه خاصة لحكمه على من زعم، وهو في آخر القرن الثاني للهجرة، أنه (رأى عائشة، بالبصرة على جمل أورق في هودج أخضر...) ذكر الذهبي هذا واردف (قلت: أنظر إلى هذا الحيوان المتهم كيف تقول، في حدود سنة مائتين، أنه رأى عائشة، فمن الذي يصدقه) (ميزان الاعتدال ٣:٢١٣).

المتجاوزة حدود الشيخوخة المعقولة في سد الفراغ التاريخي الممتد من زمن (الفيل) إلى (جيل التابعين) أو خلفاء الصحابة. وفي هذا العهد، أي بعد وفاة النبي بنحو خمسين سنة، شعر المسلمون بضرورة كتابة سيرته. فجعلوا يذكرون معاصري أبرهة[1]، وما يروون، أو ما يُروى عنهم.

وعلى هذا النحو ذكروا عن ابن اسحق (عن بعض أهل العلم) أنه بينما كانت موضعة محمد السعدية عائدة به، بعد فطامه، من البادية إلى مكة، رآه معها (نفر من الحبشة نصارى. فنظروا إليه، وسألوها عنه، وقلبوه. ثم قالوا لها: لنأخذن هذا الغلام فلنذهب نبه إلى ملكنا وبلدنا. فإن هذا غلامٌ كائنٌ له شأن نحن نعرف أمره) ثم زاد ابن اسحق: (فزعم الذي حدثني أنها لم تكد تنفلت به منهم)[2].وليست هذه الحادثة بالصدفة الوحيدة التي نرى فيها الحبشان في مكة. فهناك جماعة من الوفود يبلغون العشرين من نصارى الحبش، يأتون مكة في سبيل السلام على النبي وإظهار عواطف احترامهم[3]. أو لم يكن محمد (رسول السودان والحُمران)[4] أي رسول الإنسانية جمعاء؟ وليس ما يمنع القول أن قافلة من التجار الاكسوميين رأت، أثناء مرورها بالمدينة القرشية، أن تشاهد هذا الداعي إلى الإصلاح الديني، في وقتٍ كان يُظهر فيه ميلاً

---

[1] من الذين ذكروا أبرهة قيس بن الخطيم، وجعله يمانياً في قوله:

فإن نحلق بأبرهة اليماني ... ونعمانٍ يوجهّنا، وعمرو

[2] ابن هشام: السيرة ١٠٧، وفي طبقات ابن سعد ١: ٧١ يتحول هؤلاء النصارى الحبش إلى يهود.

[3] ابن هشام السيرة ٢٥٩.

[4] راجع الأحاديث في هذا الشأن، وكتابنا في معاوية Mo'awia, 427, n.1.

جذاباً إلى الإنجيل وأهل الكتاب. وهكذا القول، في ما بعد، عن نصارى نجران، ونصارى الحيرة، أن جاز لنا أن نصدّق الأحاديث التقليدية.

كانت مكة قد أصبحت، إذ ذاك، أكبر سوق للرقيق في بلاد العرب الغربية. ولا يخفى ما في هذه التجارة من الأرباح الطائلة، وإذاً فلا عجب أن يكون كبار الرأسماليين من قريش، ولا سيما آل مخزوم، أخذوا بتنظيم القوافل والرحلات إلى شواطىء أفريقية ليستوردوا من الاريتره وجوارها، مما يقوم بالطلبات المتوالية عليهم. وهكذا كثر عدد السودان في مكة حتى اختارت منهم السلطة أفضل فرق جيشها المعروفة (بالأحابيش). وقد بيّنا، في بحث سابق[١]، قيمة اسمهم[٢] في الدلالة على جنسيتهم. واستغربنا كيف ان المستشرقين لم يشعروا بهذا الأمر قبل اليوم[٣]. وقد كان في خدم الأسر المكية الكبيرة كثير من السودان[٤] يستعبدون خدمةً ومهنةً تُفرض عليهم (الضريبة) اليومية.

---

[١] أطلب بحثنا في (الأحابيش والنظام العسكري في مكة زمن الهجرة) في (مشرق) السنة الفائتة ١-٣٣، ٥٣٧-٥٥٥.

[٢] اطلب أيضاً ابن بطوطة: رحلته ١: ٢٧٨ وفيها أن حراسة جامع المدينة يقوم بها (فتيان من الأحابيش)، وكذا في رحلة ابن جبير ١٩٤.

[٣] وهذا ولهوسن Reste, 86 يرى في الأحابيش حلفاء قريش السياسيين!

[٤] ابن هشام: السيرة ٢٦٧، وفيها ذكر لأمة حبشية في خدمة أم هانى، وهناك أمة نوبية في خدمة فاطمة؛ أسد الغابة ٥: ٥٣٠، ٥٥٤.

وقد أدخلت مجاميع الأحاديث بعضهم في خدمة النبي منهم شقران وأبو لقيط وغيرهما من ذكور وأناث[١]، وأن كان ما يُلام عليه أرباب هذه المجاميع فمبالغاتهم الغريبة؛ ومن يصدق بسهولة أن شقيق النجاشي نفسه كان من خدمة النبي؟[٢] ولا يخفى أن هذا الادعاء كان له صداه – أو أنه كان صدى لا دعاء آخر من نوعه – فسمعنا الشاعر الحيقطان، في القرن الأول للهجرة، يشير إلى الإسلام النجاشي نفسه[٣]، فيصلي عليه النبي[٤]. ورأينا العلويين يجعلون ابن النجاشي يُضحي بالملك، وما يجرّه من مجد وعظمة، ليدخل في خدمة علي[٥].. ورأينا جميع المحدثين يعملون على أن يجمعوا، حول النبي، أشهر سادات العرب وأشدهم أنفةً كالمغيرة بن شعبة[٦]، وأبي موسى الأشعري، ومعاوية بن

---

[١] أسد الغابة ٣: ٢-٣، ومن الإماء السود مربية النبي، وأمة كانت تستشفي بشرب بوله. راجع أسدالغابة ٥:٤٠٨، ٤٣٧، ٥٦٧، أما أبو لقيط فكان إما حبشياً وإما نوبياً، أسد الغابة ٥:٢٨٦.

[٢] أسد الغابة ٢:١٤٤.

[٣] الجاحظ: ثلاث رسائل ٦٠-٦١.

[٤] أسد الغابة ٥:٣٧٣ راجع، في إسلام النجاشي، البخاري: الصحيح (استانبول) ٢:٧١، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١؛ ابن الأثير: النهاية ٤:١٦١؛ النسائي: السنن ١:٢٦٥، ٢٧٥، ٢٨٠، ٢٨٧.

[٥] السمهودي: وفاء الوفاء ٢:٣٤٩.

[٦] النسائي: السنن ١:٢٦٥، ٢٧٥، ٢٨٠، ٢٨٧؛ واطلب كتابنا في Ziad ibu Abibi, p. 3.

أبي سفيان[1]، وكلهم يتزاحمون ويتنافسون في خدمة النبي، والقيام باحط حاجاته وأحقرها، حتى إذا تقدمت بهم السن، كان عليهم أن يتذكروا كل ذلك فيحدثوا الجيل الناشىء بمظاهر حياة النبي الداخلية، وقد أصبح (أسوة حسنة) للمؤمنين.

ومهما يكن من أمر فإن هذا الجمهور من الحبشان المقيمين في مكة[2] كانوا على تعلق بدينهم النصراني، بخلاف ما يظهر من بلال، مؤذن النبي، وأخيه من يكنى عنه مؤرخو الإسلام بكنية (أبي رُويحة) ولا يخفى ما في هذه الكنية من دلالة بالنسبة إلى رجلٍ أسود[3].

وليس من شك في أن هؤلاء الحبشان أثروا في لغة قريش، فزادوا في معجمها من مفرداتهم[4]، ظهر شيء منها في تلك الصلواة التي قام بها محمد على أثر وفاة النجاشي[5]. هذا ما يظهر من أقوال جمّاع الأحاديث. وهم في ثرثرتهم المعتادة، ورغبتهم الشديدة في الإكثار من المعلومات، لا يتراجعون أمام إظهار النبي مظهر العارف بمختلف اللغات، يتكلم بعضها ويحضّ على درس البعض الآخر. يخاطب أبا هريرة، المذكور آنفاً، وهو عربي من دوس، باللغة الفارسية[6]، ويأمر زيد بن ثابت

---

[1] ابن حنبل: المسند ٤:١٠١، الأغاني ١٦:٣٤؛ اسد الغابة ٥:٨؛ الترمذي: الصحيح (طبعة دهلي) ٢:٢١٢.

[2] راجع الأزرقي (طبعة Wustenfeld) ٩٧.

[3] اطلب مقالنا في (الأحابيش) المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ١١.

[4] Noldeke, Neue Beitr, zur senit, spracbwiss, 31-66.

[5] البخاري: الصحيح (طبعة مصر) ٤:٢٥٤.

[6] الطبري: تفسير ١:١٩٩.

بدرس السريانية في المدينة[1]. ولابد من الإشارة، في هذا الموضوع، إلى عمل الشعوبية[2] في وضع ما يوافقها من أحاديث، وإلى ما كانت ترمي إليه، في جملة غاياتها، من إقرار المساواة بين لغاتها الوطنية القومية واللغة العربية المتفوقة شيئاً فشيئاً بفضل الإسلام[3]. وقد كان من هم شعوبية أفريقية خاصة أن يدلوا على أن ذوي الألوان لم يكونوا متأخرين عن غيرهم في معرفة رسالة النبي العالمية، وفي الدين بالإسلام.

ولهذا رأينا التقاليد لا يني في ذكر العلاقات التجارية المتعددة بين قريش وبلاد الحبشة. فيقول صفوان بن أمية متذمراً في مكة: (... ونحن في دارنا هذه ما لنا بها بقاء. وإنما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف، وفي الشتاء إلى أرض الحبشة..)[4] على أن السيرة الآخذة خصوصاً بذكر مفاخر القرشيين، تُهمل كثيراً إلى أن تشير إلى الحركة الاقتصادية التي كان الأحباش يقومون بها في البلاد العربية. ونحن نعرف أن هؤلاء الأفريقيين كانوا على اتصال تجاري بموانىء الهند.

---

[1] ابن حنبل: المسند ١٨٢:٥.

[2] ومن الدلائل على هذه الأعمال ما رواه السيوطي في (موضوعاته) ١:٦ من أن الله إذا غضب، أعلن شرائعه الصارمة باللغة العربية؛ وإلا فإنه يستعمل الفارسية. وهناك حديث معاكس في الكتاب نفسه ١٥١:٢.

[3] ومن هذا القبيل قول بعض الأحاديث أن العربية لغة أهل الجنة. ولكن (الذين يحملون العرش يتكلمون بالفارسية) (الذهبي: ميزان الاعتدال ١٨٨:١) واطلب في الذهبي ٢٢٠:٣ دليلاً واضحاً على هذه النزعة الشعوبية ضد العرب (قال موسى بن يسار: أن أصحاب رسول الله (ص) كانوا أعراباً جفاةً، فجئنا نحن أبناء فارس فخلصنا هذا الدين.

[4] الواقدي (Kremer) ١٩٦.

فكيف أمكنهم أن يصرفوا النظر عن أسواق الحجاز، ولا يفصلهم عنها إلا ساعد من البحر ضيق. ثم أن البضاعة التجارية تتبع عادةً ألوية الدولة الظافرة. وقد رأينا، في حوليات مكة، أن الملاحة في البحر الأحمر بين شاطىء أفريقية وموانىء الحجاز[1] كانت تحت سيطرة الحبشة[2]، فإن هذه الأخبار لا تشير[3]، في ذكر علاقاتها مع مملكة اكسوم، إلى مركب واحد عربي أو تابع للعرب. إنما هناك ذكر للمراكب الحبشية التي كانت تأتي فتفرغ مشحونها على شاطىء شُعيبة، قرب مكة. لأن مرفأ جدة لم يكن أُنشىء بعد، وهو متأخر عن زمن الهجرة[4].بيد أن المرفأ الجديد ظل مدة طويلة، بعد وفاة النبي، ضئيل الحركة، متوقف النمو، خوفاً من نزول الملاحة الأحباش. حتى أخذ الراغبون في تقدّمه وازدهاره يضعون الأحاديث ينسبونها إلى النبي في فضله، وحسن موقعه، قائلين: جدة أفضل أبواب الجنة المعروفة كالاسكندرية

---

[1] قابل بما في Mo'awia, 48, 52-53, 270, 279.

[2] ابن سعد، الطبقات، ١: ١٣٩؛ وفي الصفحة ٩٣ ذكر لقائد مركب (رومي).

[3] إلا مرة واحدة، إن صحَّ ما يُستنتج من نص في اسد الغابة ٣: ٣٤٥. وقد ورد، في عهد أيلة، ذكر لملاحة (أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر) (ابن هشام: السيرة ٩٠٣) يعني بأهل البحر أبناء الحبشة، راجع في أهمية الملاحة الحبشية: Lammens, La, Mecque a la veil de L'begire, 278.

[4] ابن سعد: الطبقات ١: ٩٣، ١٣٦؛ ابن هشام: السيرة ٢٣٣. وكان من المراكب ما يسافر رأساً من اليمن إلى الحبشة، أسد الغابة ٥: ١٤٦، ٣: ٢٦٠، راجع كتابنا: La mecque.. 284, 288..

وعسقلان[1].. (وفضل جدة على هؤلاء كفضل بيت الله على سائر البيوت)[2] محاولين، في ذلك التضاد المعجب بين جدة والجنة، دفع الناس إلى السكنى في ذاك الشاطىء الفاسد المناخ، اللاهب الحرارة.

وإذا انصرفنا عن الشاطىء الحبشي، نرى أن مكة كانت لها العلاقات التجارية الزاهرة مع نجران وسائر الأوساط النصرانية في اليمن[3]. وهو ما يبرّر ذاك المحلّ الكبير الذي يحله النجرانيون في (السيرة) وفي تفسير القرآن[4].فعندما شاء المفسرون أن يعيّنوا (أهل الكتاب) الظاهرين في حفلة (المباهلة)[5] المعروفة، فكرّوا حالاً بالنجرانيين. ولم يكن وجودهم في مكة، على ما يظهر، من الحوادث النادرة. وقد يعد لهم نقل تلك الأقمشة المنسوجة في مدينتهم الصناعية[6]، ونشرها بين القرشيين حتى أخذوا يستخدمونها في ستر الكعبة، وتغطية حجارتهم المؤلهة[7]. ثم أننا نرى القرشيين المشركين

---

[1] وهما معرّضان لأحداث الأساطيل البيزنطية. ولعسقلان فضائل ذكرها الذهبي في ميزان الاعتدال ٣:١٧٠، وقابل بها في ١:٢٨٥، ٣:٢٦٠، وراجع في مجلة Etudes, mars 1918 مقالنا: Au pays philistws, p. 546.

[2] الذهبي: ميزان الاعتدال ٢:١٥٤، وقد هاجم الأحباش الشاطىء العربي، قرب مكة، في حياة محمد، ابن سعد: الطبقات ٢:١١٨.

[3] راجع كتابنا Yazid, 329.

[4] راجع Fatima, 70, 76, 97.

[5] القرآن ٣ [آل عمران] ٥٤، راجع Yazid, 344.

[6] Fatima, loc. Cit.

[7] وهو ما يشير إليه قيس بن الخطيم في ديوانه ٥:١٤:

والله ذي المسجد الحرام، وما جُلِلَ من يمنةٍ لها خُنُفُ

يتركون مكة، بعد الفتح، ويلجأون إلى نجران[1]، وإذاً فإنهم كانوا على معرفة بطريقها، وعلى أمل بوجود الملجأ والعطف بين سكانها.

وكما كان يذهب القرشيون إلى نجران، كان يأتي (نصارى من أهل نجران) إلى مكة، كأولئك الذين جاؤوا ليناقشوا النبي، كما تقول (السيرة)[2]، مستوحيةً خبرها، على الراجح، من (أسباب النزول). وأسباب النزول مجموعة تفاسير وشروح حافلة بالأخبار والحوادث والنوادر، يرمي فيها المفسرون إلى شرح الآيات ووضعها في محيط تاريخي وجغرافي يسهل فهمها، وإدراك أسباب (الوحي) بها. وقد لا نخطىء المقصد إذا قلنا أن هؤلاء الزوار، أو الوفود، كانوا من ممثلي التجارة في تلك الجمهورية النصرانية العاملة[3]، وأن وجودهم في مكة كان يوافق انعقاد الأسواق السنوية المهمة في عكاظ، وذي المجاز، وقد ذكر من هؤلاء النجرانيين رجلٌ تحدث إلى النبي اسمه عبدة بن مُسهر. فأسرع جمّاع الأخبار الخاصة بالصحابة إلى تدوين هذا الاسم، وهم لا يغفلون طرفة عين عن كل ما يوّسع معلوماتهم، ويضخم ترجمات من يُعنَون بهم من الصحابة سواء أثبت وجودهم أم لا[4].

---

[1] أسد الغابة ٣:١٥٩-١٦٠، ويذكر الجاحظ (كتاب الحيوان ٣:٣٧) ثلاثة أبيات لاسقف نجران، ولا يسميه.

[2] ابن هشام: السيرة ٢٥٩.

[3] أسد الغابة ٤:٢٥٦، وفيه أن اسقف نجران زار محمداً في مكة.

[4] وهم في ذلك لا يهملون شيئاً، بل لا يتراجعون أمام بعض الأساليب البعيدة عن النقد التاريخي كتضعيف عدد بعض الصحابة وتثليثه أحياناً. راجع ما قلناه عن ذلك في بحثنا:

ولما سئل عبدة عن موطنه قال أنه (كعبة نجران)[1]، وهو اسم الكنيسة المهمة في مدينته، تلك الكنيسة المشهورة في بلاد العرب كلها. ولا يخفى أن تلك الأسواق كانت تقام، على الغالب، مدة الشهرين السابقين لموسم الحج. فكان يقصدها كثير من البدو، وعدد من التجار يأتونها من أنحاء الجزيرة جميعها. ولم يكن من النادر أن يكون بينهم عدد من تجار الحيرة النصارى، والحيرة من أهم الأسواق في وادي الفرات الأسفل، يقدمون إلى عكاظ مع القافلة الرسمية التي كان يرسلها، كل سنة، ملك فارس، وسيد أمرائهم اللخميين. وآخر تلك الأسواق التهامية في التاريخ كانت سوق ذي المجاز التي كان يمتد زمن انعقادها حتى قبيل موسم الحج. وموقعها قريب من مِنى، ومِنى من أرض الحرم، كما لا يخفى فكان كثير من التجار والحجاج، وسائر حاضري السوق، لا يعودون قبل أن يمُرّوا في مكة فيزوروا مصارفها، ومخازنها، وحوانيتها، ويحدثنا الحديث أن وفداً من نصارى الحيرة أرسله أسقفه ليسأل عن

---

(الأحابيش) في مشرق السنة الفائتة ص ١١، الحاشية ١. وليعقبه خاصة إلى الصحابة المزدوجة اسماؤهم حتى وُلد من كل واحد رجلان من اسد الغابة ٤:٥١، ١٠٥، ١٠٩، ١١٥، ١٢٩، ١٤٢، ١٤٥، ١٥٢، ٢٠٠، ٢٠٥، ٢١٨، ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٤٧، ١٩٣؛ ٥:٢١٩، ٢٩٤-٢٩٥، ٥٥٣، ٤٣٠، ٥٧٧، ٥٧٨؛ بل أربعة رجال، في اسد الغابة ٤:١٧٠-١٧١.

[1] أسد الغابة ٣:٣٢٧ وهناك ذكر (لكعبة الطائف) راجع Goldziher zabiriteu, 132, n.2 وقد دُعي ذو الخلصة (كعبة اليمن) راجع Yazid, 340، والبخاري: الصحيح (طبعة استانبول) ٧:١٥٢، فما قيمة هذه التسمية (بالكعبة) وما معناها، إن لم تكن قالباً متداولاً لا قيمة مهمة له.

عقيدة محمد وبعثته[1]. ومهما يكن من أمر، فإن لنا الحق، بعد أن عرضنا كل ما تقدم من المعلومات، أن نفرض النصارى في مكة مروراً متواصلاً إن لم نقل إقامةً مؤقتة.

ولم يكن الأحباش وحدهم يمثلون العبيد المقيمين في مكة، وإن كانوا يؤلفون أكثريتهم الساحقة. ويظهر أن النبي كان على اتصالٍ ببعضهم بدليل ما زعم مخاصموه ومناقشوه من أنه كان يختلف (بكرةً وأصيلاً) إلى رجال أجانب لسانهم (أعجمي) فيعلمونه (أساطير الأولين) يدوّنها في قرآنه. وهذا قول القرآن في هذا الشأن نورده بنصه:

قال في سورة النحل ١٠٥ (ولقد نعلم أنهم يقولون: (إنما يعلمه بشرٌ لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجمي، وهذا لسانٌ عربيٌّ مبين).

وجاء في سورة الفرقان ٥ و٦ (وقال الذين كفروا: إن هذا إلا أفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون، فقد جاؤوا ظلماً وزوراً. وقالوا: أساطير الأولين أكتبتها فهي تُملى عليهِ بكرةً وأصيلاً).

ونقل ابن هشام في السيرة شارحاً (سبب نزول) الآية: (وكان رسول الله فيما بلغني، كثيراً ما يجلس عنه المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال فه جبر، عبد لنبي الحضرمي. وكانوا يقولون: والله ما يعلم محمداً

---

[1] هذا ما يقوله الحديث زاعماً أن الأسقف المذكور كان متزوجاً؛ أسد الغابة ٤:٢٤٤، بيد أننا سنرى أن عداساً المقيم في مكة، كان يجهل بعثة محمد وحركته، فما القول من نصارى الحيرة؟

كثيراً مما يأتي به إلا جبرٌ النصراني، غلام بني الحضرمي. فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ولقد نعلم..)[1].

من هؤلاء الأجانب، ذوي اللسان الأعجمي، تذكر (أسباب النزول) موالي أو عبيداً من عين التمر، في ما بين النهرين[2]. ومنهم واحد كان من موالي مخزوم، كما يقول بعض جُماع الأحاديث[3]. وليس في الوصول إلى هذا التدقيق كبير عناء، بل كان يكفي أولئك المحدثين أن يتذكروا كم كان لآل مخزوم من عبيد وموالٍ يستخدمونهم في مرافقهم الاقتصادية المتعددة.

وأن لنا في أخبار حياة النبي الخاصة ذكراً لعددٍ من العبيد المصريين: ذكور وأناث، كانوا يعيشون في مدن الحجاز. رافق عدد منهم مارية الجميلة، جارية النبي[4]. وهي قبطية الأصل امتلكها أولاً عباس، ثم أعطاها نسيبه محمداً[5]. ويذكر صاحب أسد الغابة، في حرم عباس،

---

[1] راجع ابن هشام: السيرة ٢٦٠، ويرى كايتاني (Annali, I, 235) في ذلك، تأثير زيد بن حارثة، وهو مولى من كلب، وإذاً من المتنصرين، تبناه محمد، وهذا التأثير يدل عليه نصيبه الوافر من أخبار السيرة، راجع Fatima, 24,40.

[2] الواحدي: أسباب النزول ٢١٢.

[3] أسد الغابة ١٣١:٣. وفيه ذكر جارية يونانية من موالي بني مخزوم ٤٦٢:٥، ثم ذكر جارية يونانية أخرى ١٩٤:٥.

[4] أسد الغابة ٢٦٨:٤، وتجد ذكراً لغيرها من الجواري والعبيد القبط في المدينة، أسد الغابة ١٢٨:٥، ٣٤٢:٤، ويذكر الذهبي (١٣٤:٣) مولى اسمه تادرس (فهو قبطي إذاً) من موالي حِزام بن حكيم المكي.

[5] أسد الغابة ٧٧:١.

جارية أخرى، يونانية الأصل[1]. وهناك مولاة اسمها مارية - وإذاً فهي يهودية أو نصرانية- [2]، تذكر أنها رأت زيد بن عمرو (الحنيف) المشهور[3]. ومن موالي صفوان بن أمية السيد القرشي المعروف، رجل اسمه نسطاس، أو انستاس، ولا شك في نصرانيته بدليل اسمه[4]. وكذلك نذكر من النصارى المدعو مينا أو ميناس، وهو رجل (غير منسوب)- أي لا يلتحق بإحدى القبائل العربية - صادف محمداً قرب الحجر، ونذكر يوحنا، عبد صُهيب[5]، وصهيب نفسه لم يكن عربياً بل كان سوري الاصل. ومن النصارى الأجانب نسطور الرومي، وابنه جعفر الذي كان يفتخر بأنه تناول سوط الرسول، وقد وقع على الأرض في إحدى الرحلات. فكافأه النبي بأن سأل الله أن يطيل حياته. ويزيد جعفر: فعشت ثلثمائة وعشرين سنة بعد الرسول. كذا، ويضيف الذهبي

---

[1] أسد الغابة ١:٢١٢، ٤:٢٣٢.

[2] وقد تقدم لنا القول أن العرب الجاهليين لم يألفوا استعمال الأسماء المعروفة في الكتاب المقدس. ولهذا وجب أن يكون أبو حنا المدني المذكور في ابن سعد: الطبقات ٣: ٤٥-٤٦، يهودي الأصل. وفي الكتاب نفسه ٣:٥٤، ٢١ ذكر لامرأة مدنية أسمها ساره. وفي ١:٤٣ أن إحدى بنات عبد مناف أسمها حنه. ومن المفيد أن يراجع بشأن اسم (حنا) J.Horovitz, Koran, Untersucb, 158.

[3] أسد الغابة ١:٣٨٧.

[4] الأغاني ٤:٤٣، ابن هشام: السيرة ٦٤٠؛ اسد الغابة ٢:٢٣٠، الواقدي ٣٥٣.

[5] اسد الغ ابة ٣:٣٣؛؛ ٤:٤٢٧ السمهودي: وفاء الوفاء ١:٣٨٠؛ الذهبي: ميزان الاعتدال ٣:٢٢٥- ولنضف إلى ما تقدم ذكر امرأة فارسية مقيمة في مكة (اسد الغابة ٥:٤٠٢ ومولى يوناني تزوج سمية، أم الصحابي عمار (أسد الغابة ٥:٤٨١) وفي السمهودي ١:٨٧، نبؤة لمحمد تشير إلى تكاثر العبيد من يونان وفرس.

المعروف باعتداله: (هو أسقط من أن يُشتغل بكذبه)[1]. ثم ينعته بأنه (طير غريب متهم بالكذب)[2] ؛ بل أنه ينفي وجوده، في مكان آخر[3]، وهذا أقرب إلى المعقول.

ويجب أن نذكر من النصارى المقيمين في مكة، في هذه الحقبة، فرات ابن حيان[4]، أشره من يُذكر من الأدلاء، وقادة القوافل في المجاهل الصحراوية. كان فرات من بني عجل البكريين الذين ظلوا نصارى مدة طويلة بعد الهجرة[5]. وكان حليفاً لآل سهم من القرشيين. ومن نصارى مكة صهيب بن سنان المشار إليه آنفاً والمعروف (بالرومي) لأنه كان أصله من المقاطعات السورية - العراقية التابعة لإمبراطورية الروم أو بيزنطية[6]. كان من أصدقاء محمد المخلصين، ولعله كان من عملائه، عهد كان النبي يشتغل بالتجارة ونقل البضائع. والمعروف من صُهيب أنه بدأ شريكاً لابن جدعان المثري الكبير، ثم انفرد عنه، وأصبح من ذوي الثروات المعتبرة في مكة، بل المحسودة.

---

[1] الذهبي: ميزان الاعتدال ١:١٩٤.

[2] الذهبي: الكتاب المذكور ١:٢٠١.

[3] الذهبي: الكتاب المذكور ٣:٢٣٠- وقد تقدم لنا ما يدل على دقة السرد في أحكام هذا الناقد البصير.

[4] ابن سعد: الطبقات ٢:٧. ويزعم ابو داود في السنن ١:٢٦٣، أنه كان حليفاً للأنصار (كذا) في الطبقات ٢: ٧-٨ أنه جُرح في بدر.

[5] راجع Mo'awia, 436.

[6] اسد الغابة ٣: ٢٠-٣١، وفي البلاذري (الأنساب ١١٠ قفا) أنه دعي (الرومي) لأنه كان أحمر شديد الأحمرار.

يدل على ذلك ما هدده به القرشيون حين أراد الالتحاق بالنبي إلى المدينة، بعد الهجرة، فقالوا: (أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت. ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك. والله لا يكون ذلك)[١].

ولا يخفى أن النبي كان، في أول عهده، يدبر أموال امرأته خديجة، فكان عليه أن يتردّد إلى الأسواق والمعارض. فلما أظهر بعثته، ظل على تلك العادة[٢]، لعله يجد في المجتمعات من يؤمن بدعوته. هكذا كان شأن قس النصارى ورهبانهم في زياراتهم مجتمعات البدو؛ وهكذا كان شأن قس بن ساعدة (أسقف نجران) الذي كان يأتي سوق عكاظ، على ما تقول الأسطورة، فيعظ القوم[٣]. حتى أن النبي يذكر أنه سمع إحدى مواعظه، كما أنه يذكر راهباً (يعالج الأعين) عالج عينيه، في صغره، وشفاه[٤]. أما اسم الراهب فسميع. وأما طريقة معالجته فكانت بأن

---

[١] ابن هشام: السيرة ٢٣١.

[٢] وقد أشار خصومه إلى هذا فقالوا: (ما لهذا الرسول يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق...) (القرآن ٢٥ [الفرقان] ٨)؛ وراجع الذهبي: ميزان الاعتدال ٢:١٠٥؛ Fatima, 95.

[٣] الأغاني ١٤: ٤١-٤٢؛ الأب لويس شيخو: شعراء النصرانية ٢١١-٢١٨؛ السيوطي: الأحاديث الموضوعة ٩٥-١٠٠.

[٤] ابن الجوزي: وفاء (مخطوطة ليدن) ص ٢١ قفا. وهناك ذكر لكاهن آخر يعالج الأعين، الأغاني ١١:٤٣؛ السيرة الحلبية ١:١٢١.

وضع على عيني الصغير قليلاً من تراب جبل سينا[1]. ولا شك في وجود المداوين والدجالين[2] في عكاظ وغيرها من الأسواق العربية.

أما هذه الأحاديث النبوية فغايتُها أن تبرّر الإلتجاء إلى طبيب من غير المسلمين[3]؛ مستندة إلى ما عرف عن النبي من ميل واضح إلى الرهبان[4]. ونحن نرى أنها موضوعة، في أكثرها، إن لم نقل في كلها، عصر كان كبار الأطباء جميعهم من النصارى واليهود. من ذلك أن مجاميع (الصحيح) تفيدنا أن النبي عهد في معالجة سعد بن أبي وقاص، من جماعة (المُبشرة) إلى رجلٍ غير مؤمن هو الحرث بن كلدة الثقفي (طبيب العرب) على الإطلاق.

وأعجب من كل ذلك، إذا صح، وجود ناسك عمودي في مكة في هذه الحقبة[5]. وقد وددنا لو ثبت له شيء من الخطب[6]- فضلاً عن ثبوت وجوده - فنرى هل من شبه بين خطابته وخطابة شفيع العموديين

---

[1] مجموعة (مخطوطة برلين رقم ٩٦٣٣).

[2] الجاحظ: كتاب الحيوان ٤:١١٩ ويذكر ابن حنبل (المسند ٤:٤٠) طبيباً متنقلاً يعرض على محمد أن يُعالج عائشة ويشفيها.

[3] راجع الأغاني ١٤:١٧٣.

[4] راجع القرآن ٣ [آل عمران] ١٠٩، ٥ [المائدة] ٨٥- والأطباء كلهم من النصارى أو اليهود؛ أطلب Mo'awia.9, Caetani, Annali, annee II, p. 27, n.i ؛ الجاحظ: البخلاء ١٠٩، وهناك رهبان يعالجون الكلب، المقدسي ١٤٦.

[5] المفضل: الفاخر (طبعة Storey ٢٣٥-٢٣٦، ولا يخفى إعجاب البدو بهذا النوع من النسك النصراني.

[6] وفي الفاخر أمثلة من هذه الخطب، ولكنها تظهر مصنوعة على مثال السجع القرآني.

جميعاً، سمعان الكبير، الذي كان يلتهب غيرة وحماسة، ويندفع من فوق عموده، في مقاطعة انطاكية، واعظاً مؤنباً جموع البدو المحتشدين حول مقامه الرفيع.

ومهما يكن من أمر فإن الديورة والمناسك النصرانية لم تكن قليلة في بلاد العرب الغربية، ولا سيما شمالي الحجاز، على طول الطريق التجارية الآخذة نحو سورية[1]، المحاذية لخط الحدود الرومانية، وفي واحات وادي القرى، ومدين[2] وتبوك، وهذه الواحة الأخيرة كانت مركزاً لحامية من رجال الغساسنة ظلت في خدمة البيزنطيين، حتى بعد معركة مؤتة[3]، وفي السيرة الحلبية[4] ذكر لراهب كان في مر الظهران، أي في منطقة مكة، ونحن نعرف أن رجال الاكليروس بين نصارى العرب كانوا كلهم من الرهبان[5]، وذلك أن الرهبان، وقد تعوّدوا شظف الحياة التقشفية، كانوا وحدهم يقوون على ذاك الجهاد المتواصل بأداء واجباتهم في مناطق الصحراء.

---

(1) اطلب في ذلك بحثنا L'ancienne frontier antre la syrie et le higaz, dans Bellet, de l'Inst, fr, daarcbeol, orientale, XIV, 95.

(2) راجع Berceau, I, 189-190؛ تفسير الطبري ٧:٤،

(3) اطلب Ancienne fronlierc, 86 ؛ أسد الغابة ٥:١٧٦.

(4) السيرة الحلبية ١:٧٥.

(5) راجع Yazid, 340 ؛ الأغاني ١٤:٤٩؛ اسد الغابة ٣:٦٣، وفي النسائي: السنن ١:١١٤، ذكر لراهب عربي من طي يقوم بمهمة الخوري، ويذكر الهمداني: صفة جزيرة العرب ٥٣، بعض الرهبان في جزيرة سوقطرة.

ولا ننس تجار الشام ورحلتهم إلى الحجاز، ناقلين الحبوب، والزيوت، والخمور إلى المجتمع القرشي[١] المقيم في (وادٍ غير ذي زرع)[٢]. وهؤلاء أهل يثرب أنفسهم، على خصب واحتهم وصلاحها لزرع الشعير[٣]، كانوا يستوردون قمحهم من الشمال: من البلقاء ومن حوران[٤]. بيد أن التجارة المحلية في المدينة كان يحتكرها اليهود، وهم أبعد همة، وأقوى جلداً، وأكثر مالاً من وطنيتهم الأنصار المخلدين إلى الراحة وعدم المبالاة. أما نقل القمح إلى مكة، وهي سوق أوسع مجالاً وأبعد شهرة من سوق المدينة، فكان يستقل به (الأنباط)، أي سكان سورية الأصليون. وكانوا في أكثريتهم من النصارى. وقد كان لهم مستودعات ومخازن تصلح حوانيت للبيع أحياناً؛ وقد تصلح، إبان الاحتفالات الدينية، كنائس ومعابد، وقد ذكرت لنا كتب الحديث وصول شماس إلى مكة، شماس أجنبي، دون شك، لأن جماله الغريب ترك أثراً بعيداً في سكان العاصمة القرشية[٥] حتى أن أصحاب المجاميع دونوه معجبين[٦]. أما اسم (شماس) فكثيراً ما دلّ في الأحاديث

---

[١] من هؤلاء التجار تميم الداري، الشامي الأصل، الذي كان يبيع الريت والمصابيح؛ راجع أسد الغابة ١٤٥:٥، والازرقي ٣٧٥، ومنهم كيسان الصحابي بائع الخمور، الدمشقي الأصل؛ أطلب أسد الغابة ٢٥٩:٤.

[٢] القرآن ١٤ : ٤٠.

[٣] اسد الغابة ١٨٩:٣.

[٤] ابن هشام: السيرة ١١٩، ويظهر مما ينقل الذهبي: ميزان الاعتدال ٢٤٤:٣ أن خبز القمح كان نادراً في المدينة على عهد الرسول.

[٥] ابن هشام: السيرة ٤٨٩، وقابل بها في الصفحة ٣٤٩؛ اسد الغابة ٣٧٥:٣.

[٦] اسد الغابة ١٤٨:٤؛ وراجع Yazid, 58.

القديمة، على الكاهن المسيحي[1]. وتميّز هذه الأحاديث، على ما دخلها من الغريب، بين هؤلاء الشمامسة، والرهبان (أصحاب الصوامع)[2]. على أن بعض دارسي الأحاديث، حتى من علماء عصرنا، لم ينتبهوا الانتباه الكافي لهذا التمييز، فرأينا سبرنكر يحول عدّاس – ذاك العبد النصراني، مولى عتبة بن ربيعة الأموي، الذي استقبل النبي في الطائف – إلى (راهب من نينوى)[3]، مأخوذاً، بما ورد في (السيرة الحلبية)[4]، وقد صورّه صاحبها راهباً شيخاً تلجأ إليه خديجة فتستفتيه في بعض الشؤون. أما الراجح في كل هذا فهو أن عداساً كان من بين النهرين. ولا نعلم ما جرى له حتى بيع عبداً في بلاد العرب. بيد أن كتب الحديث تغدق عليه (الترضية)، وتدوّن اسمه بين أسماء الصحابة[5]؛ زاعمةً أنه (حوّط

---

[1] قابل بما ورد عن أبي بكر في وصيته ليزيد: سترى رجالاً (قد فحصوا رؤوسهم فهم الشمامسة قد حلقوا رؤوسهم)؛ أبو عبيد: غريب الحديث (مخطوطة كوبرولو) ٢١٢ وجه. وهناك ذكر لاسقف يخلع ثوبه الاسود ويلبس ثياباً بيضاً لإقامة الرتبة؛ أسد الغابة ٣:٤١.

[2] (أصحاب الصوامع فإنه يعني الرهبان) (أبو عبيد: الكتاب المذكور) وراجع في حلق الرأس عند الرهبان، ابن الأثير: النهاية ١:٣٧١.

[3] Sprenger, Life of Mohammed, Allahadad, 1851, p. 99 وراجع: السمهودي وفاء ٢:١٨٦ وهو يسميه (عديس).

[4] السيرة الحلبية ١:٢٦٠.

[5] وإذاً فلا بد من أن يكون أدرك الفتح، أما الواقدي (ص ٢٨، ٢٩) فيزعم أنه قتل في بدر. ولا يعده مطهر المقدسي (طبعة Huart ٥:١٢٢) بين المسلمين، راجع العجيمي، أخبار الطائف (مخطوطة المكتبة الملكية بالقاهرة) ص ١٩ وجه.

بحجارة) كل مسجدٍ وكل مصلى صلى فيه النبي في جبل سراة[1]، معوّضاً بذلك عن أعرضا أهل الطائف عن القيام بهذا الواجب التقوي.

ثم هناك طبقة أخرى في المجتمع العربي يظهر الحديث بها اهتماماً جدياً، هي طبقة (الكهان) وما ذاك إلا لأنهم يمثلون دوراً مهماً في (دلائل النبوة) أي في مجموعة المظاهر والآيات التي تدل، في نظرهم، على ظهور محمد. وعلى هذا السبيل يذكر الحديث الكاهن النصراني مأمون بن معاوية، وهو من أشهر الاختصاصيين بفنه وباستخراج دلائل الزجر والعرافة. كان له طائر[2] خاص يزوره في أوقات متناسبة فيوليه من الوحي ما يمكنه من معرفة الغيب وفهم حوادث المستقبل. وفي إحدى هذه الزيارات، وكانت يوم جمعة، أعلن الطائر للكاهن أن مجيء محمد صار قريباً. بيد أن من نقص التدقيق في هذه الأسطورة[3]، المنسوبة إلى صحابي مخترع من أولئك المعمرين البالغين ١٦٠ سنة، أن الراوي يهمل ذكر مقام العرّاف النصراني هل كان في مكة أم في غيرها من قرى تهامة[4].

---

[1] أسد الغابة ٣:٣٨٩- ٣٩٠.

[2] هو (التابع) أو الروح الخاص بالكاهن يلهمه بما يقول. ولا يندر أن يتخذ هيئة الطيور. راجع ابن سعد: الطبقات ١:١١٠، ١٢٦.

[3] قابل بما يروى عن الكاهن النصراني سطيح في ابن هشام: السيرة ٩، ٣٨، ٤٥، ٤٧.

[4] اسد الغابة ٣:٥٣.

ومهما يكن من آراء النقد في هذه الأساطير الموضوعة، والتي نرى فيها كثيراً من رجال الدين المسيحي، فليس لنا ما يجيز الزعم بأنه كان في مكة نظام مرتب للاكليروس النصراني[١].

ولا يجرح هذا القول ما نراه عرضاً من ذكر لبعض الأساقفة يميل إلى الأساطير أكثر منه إلى الحقيقة التاريخية. كما جاء في أخبار الفيومي من أن عبد المطلب، جد محمد، تحدث إلى أسقف، في فناء الكعبة. ويزيد المؤلف شارحاً لفظة أسقف: أي رئيس النصارى. وكان من نتائج هذا الحديث أن الأسقف أخذ يفصل لجد النبي حياة حفيده المقبلة مرحلةً مرحلة[٢]. ولا نزعجن بالنا بالسؤال عن أي أسقف هذا، ولا إلى أي كنيسة من بلاد العرب كان ينتمي. وإلا فإننا نولي مخيلات أرباب (السيرة) أهمية وانتباهاً هي جد بعيدة عن أن تستحقها. وليس من غاية في دسّ هذا الأسقف الجديد في حوادث طفولية محمد إلا ما عرفناه، في ادخال زملائه أساقفة نجران والحيرة، من العمل على إظهار أنحاء الجزيرة بأجمعها متأثرةً بظهور نبيها العربي الوطني. وأقل من هذا الاهتمام

---

(١) ارجع إلى شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ١:١١٧، ويجب أن يُقرأ نص الأغاني (١٣:١٠٩) (لا سقف عليه) بدل: (لأُسقف عليه) وكذلك أن أبا قيس صرمة المذكور هناك (ص ١٣٠) كان أنصارياً لا قرشياً (راجع Cbronologie de la sira, 228-231) من الحق أن (التقويم) النسطوري يعين مركز أسقفية في المدينة وفي عكاظ، ولكنه لا يقول شيئاً بشأن مكة، على أن هذا (التقويم) نفسه مزور، يرقى إلى عصر قريبٍ منا كل القرب، راجع Taif, p. 86.

(٢) الفيومي: الأخبار (مخطوطة عاشر أفندي، استانبول) ص ٥ وجه؛ السيرة الحلبية ١:١١٨.

ما يجب أن نوليه لقب (القس) الذي أُلصق باسم ورقة بن نوفل[1]، فلا نحفل كثيراً بمعنى هذه الكلمة، ولا نعمل على استنتاج المهم منها. وكذلك نقول عن لفظة (راهب)[2] في لقب أبي عامر المدني، والد حنظلة، شهيد أُحُد، و (غسيل الملائكة).

وكان التجار المقيمون في مكة، إن لم يكونوا (حلفاء)[3] لبعض الأسر القرشية، يُفرض عليهم أن يدفعوا ضريبة تقابل ما يولون من حق بالإقامة وبالتجارة. يدل على ذلك نص في كتاب (الخراج) ليحيى بن آدم يظهر منه أن النبي فرض ضريبة سنوية على أحد هؤلاء... وهذا هو النص: (ضرب رسول الله (ص) على نصراني بمكة ديناراً كل سنة)[4]، ولا عجب فإن محمداً، عندما فتح مكة، واستتبت له السلطة فيها، لم يتراجع أمام اتخاذ ما كان فيها من أساليب تجارية ومالية أقرّها العرف والاستعمال. وفوق ذلك، فإن هذا الخبر كان من شأنه أن يبرّر الخلفاء المالي من الذميين[5]. ولهذا اهتموا به ودوّنوه في نصوصهم الاقتصادية.

---

[1] راجع البلاذري: الأنساب ٦٤.

[2] ترهب، تأله، تحنف، تحنث، أفعال تدل على مختلف مظاهر الزهد عند قدماء العرب. راجع اسد الغابة ٥: ٢٠٠ وفيه تطلق لفظة راهب على أحد أشخاص العهد العتيق. بل إنما تطلق على أحد المشركين المقيمين في مكة، فيُدعى (أبا صيفي الراهب) (أسد الغابة ٥: ٤٧٥).

[3] كان من واجب الحلفاء أن يشاطروا القبيلة في نفقاتها العامة، كدفع دية القتل، وفدية الأسرى.

[4] كتاب الخراج ٥٣؛ راجع أيضاً ابن سعد: الطبقات ١: ٣٩.

[5] نشير هنا إلى الخراج أو الجزية، ومبدأهما يختلف عما تقدم.

على أن هذه الضريبة كانت تختلف روحاً ومبدأ عما قام بعد ذلك في الشرع الإسلامي. وذلك أن الضريبة القرشية القديمة كانت تُفرض على التاجر الأجنبي، لا لأنه يهودي أو نصراني، بل لأنه أجنبي عن بلاد العرب. فإن الصفة النصرانية لم تكن تمنع العرب أن يحبوا النصارى، على ما قال أبو الطمحان الأسدي:وإني، وإن كانوا نصارى، أُحبهم

ويرتاح قلبي نحوهم، ويتوق[1]آخر من ذكرنا من النصارى في مكة وجوارها بعضُ التجار الذين كانوا يأتون المجتمع القرشي بالحبوب، والزيوت، والخمور.وكان هناك غيرهم من أرباب الصنائع المختلفة كالقصابين، والحدادين، والحجامين. وكلهم كان العرب يدعوهم (بالعلوج)[2]. على أنهم يمتدحون مهارتهم في الصناعات، كما نعرف من حادثة أبي لؤلؤة على عهد عمر بن الخطاب. ولنا في متفرّق كتب الأحاديث ذكر لبعضهم، عبيداً أو موالي، اشتهروا بالنجارة[3] ، وصنع الأسلحة[4]، وإصلاح الأحذية[5]، بل أن هناك ذكراً لعبد من السودان كان يصنع التماثيل في المدينة[6]، وهناك نجار من الأقباط، أو من الروم، قام بتسقيف الكعبة، قبل دعوة النبي بسنوات عدة، وكانت

---

(1) الجاحظ: كتاب الحيوان ٥:٥٣.

(2) اسد الغابة ٤:٧٥.

(3) م.ن ٤:٧٦، ٢٢٦؛ ٥:٥٠٧ ولم يكن في المدينة، على عهد النبي، سوى نجار واحد (السمهودي: الوفاء ١:٢٨٠).

(4) م.ن الغابة ٤:٣٤٨.

(5) م.ن الغابة ٥:١٢٤.

(6) م.ن الغابة ٥:٥٩١.

الكعبة لا تزال (لا سقف عليها)[1] ،ثم أن أسرة بني مخزوم من عرفناها بالغنى والسهر على مصالحها التجارية والاقتصادية . كانت تستخدم الكثير من العبيد الأحباش في صناعاتها المختلفة محوّلة المواد الأولية التي كانت تستقدمها من اليمن، حتى إذا دنت ساعة الخطر واضطرب الأمن، أسرع المخزوميون فسلّحوا هؤلاء الصنّاع، على نحو ما ذكرناه في مقال (الأحابيش)[2]، وقد عرضوا على محمد معونة هؤلاء (الجنود) بضعة أيام قبل معركة حُنين. فرفض النبي الاستعانة بالسودان[3]. ولعله شك في إخلاصهم، وقد خبرهم يوم أُحُد.وكان من عادة محمد . قبل الهجرة . أن يزور الحوانيت والأكواخ التي كان يشتغل فيها الصنّاع النصارى. فيحادثهم بشؤون الدين، حتى اتهمه أعداؤه بأنه يستوحي منهم تلك الأخبار التي كان يردّدها على مؤمنيه وسامعيه. فاضطُر النبي إلى تسويغ نفسه بحماسة، ذاكراً أن ما يقوله مجلوٌّ (بلسان عربي مبين) على حين أن لسان أولئك الأجانب (أعجمي) غير فصيح. هذا ما يُستنتج من بضع آيات حفظت صدى هذه المشاحنة في القرآن، فجاء فيها:

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ. وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي

---

[1] ابن هشام: السيرة ١٢٢؛ اسد الغابة ١:١٦٣؛ Cbroniken, W., III, 50 السيرة الحلبية ١:١٥٥؛ ابن الأثير: النهاية ١:٢٨٢؛ السمهودي: الوفاء ١:٢٨٠، بيد أن اسم بقوم (باخوميوس) المطلق على هذا النجار يميل بنا إلى ترجيح أصله القبطي.

[2] راجع هذا البحث في (المشرق) ٣٤[١٩٣٩] ١-٣٣، ٥٢٧-٥٥٥.

[3] الأغاني ١:٢٢.

يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [1] وفي سورة غيرها: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [2].

على أن القرشيين لم يكتفوا بهذا الردّ اللغوي، وهم إنما كانوا يتحققون أمراً واقعاً باختلاف النبي إلى معامل النصارى وأكواخهم، ثم ينتقدون على أخباره وأحاديثه بأنها قديمة معروفة لا ابتكار فيها ولا طرافة فهي من (أساطير الأولين)، ولنا في القرآن الكثير على هذا الموقف: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ الفرقان ٥ [3]، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [4]، ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [5]، إلى غير ذلك من الآيات المماثلة [6]، أما النبي فقد اكتفى بالرد

---

[1] القرآن ١٦ [النحل] ١٠٤، ١٠٥.

[2] القرآن ٢٥ [الفرقان] ٥.

[3] القرآن ٢٥ [الفرقان] ٦.

[4] القرآن ٦ [الأنعام] ٢٥.

[5] القرآن ٨ [الأنفال] ٢١.

[6] القرآن ١٦ [النحل] ٢٦؛ ٢٣ [المؤمنين] ٨٥؛ ٢٧ [النمل] ٧٠؛ ٤٦ [الأحقاف] ١٦؛ ٦٨ [القلم] ١٥؛ ٨٣ [المطففين] ١٣.

اللغوي المتقدّم حتى إذا كثر أتباعه، وشعر بقوّته أخذ يتحدّى (الأنس والجنّ) أن يأتوا بمثل آيةٍ من آياته.

ولا يخفى ما في هذه المناظرة من فائدة لموضوعنا، إذ هي تفيدنا وجود عدد من الأجانب في مكة كان يختلف إليهم محمد. ونستفيد، فضلا عن ذلك، أن هؤلاء الأجانب كانوا من الموحدين[١]. ولم ينكر النبي صفتهم التوحيدية، ولا اختلافه إليهم. إنما أنكر أن يكون قد استقى منهم معلوماته بحجة أن لسانه عربي فصيح ولسانهم أعجمي. أما الفرق بين ما أتى به من المعلومات التاريخية والعقائدية في القرآن، وبين ما كان ممكناً أن يتناوله من أولئك الأجانب، في زعم أعدائه، فلا يهمنا الآن؛ وإن يكن النبي رأى في أقواله خاصة تلك المزية اللغوية والبيانية الفارقة التي جعلت من القرآن آية بل (معجزة) لا يمكن المقلدين أن يتخطوها. على أننا نشكر له ما أفادنا، بطريق العرض، من معلومات عن أصل أصحابه الموحدين، وكلهم أجانب عن البلاد العربية المعروفة: الحجاز ونجد. ولم يكن النبي ليطلب العربية الفصحى من نصارى الحيرة ونجران، فكيف (بأنباط) الشام، المتأثرين بالآرامية، أو ببدو الحدود البيزنطية بين الشام وأعالي العراق كعشائر بني كلب[٢]، ولغتهم خليط غريب من العربية واللهجات الآرامية حتى أنه لم ينبغ

---

[١] ولا يمكن أن نجعلهم من اليهود، لقلة العبيد اليهود في الحجاز، إذ ذاك. راجع بحثنا Les Juifs a la Mecque a la veille de l'begire.

[٢] وإليهم كان ينتسب زيد بن حارثة الذي تبناه النبي. ومن الراجح أن زيداً كان أكبر سناً من (أبيه)؛ لأنه تزوّج حاضنته السوداء أم أيمن ( أطلب Mo'awia, 413).

شاعر واحد منهم باللسان العربي قبل الهجرة. أما زُهير بن جناب فاقرب إلى الأسطورة المتولّدة في العصر الأموي منه إلى التاريخ الصحيح[١].

وكان هؤلاء الأجانب الساكنون في مكة، فوق مهارتهم بالصناعات اليهودية، قد احتكروا أنواع الفنون على ضآلتها في ذاك المجتمع، ومظاهر المهن الحرة، وكل ما كان يفرض معارف وضعية خاصة، أو ثقافة علمية، نادرة بين العرب، إذ ذاك.

هذا وقد حفظ جمَّاع الأخبار والأحاديث كابن رسته[٢]، وابن قتيبة[٣]، لائحة بالمهن والصناعات، التي كان يمتهنها (أشراف) قريش من الأمويين والمخزوميين ومن إليهم. وإذا بينهم الحدَّادون، والخياطون، والقصابون... قلنا: من الصعب أن لا نرى في هذا التعداد تأثير الشعوبية الرامية إلى إقرار المساواة السياسية بين جميع عناصر الدولة المسلمة، ومن ثمَّ إلى الحط من إدعاءات القرشيين بالحط من أشرافهم قبل الإسلام. وذلك أننا نادراً ما نرى في الهجاء القديم نعتاً

---

[١] راجع Berceau, I, 320 ولا شك في أن شعره منحول. وهناك كلبي آخر اسمه دحية بن خليفة كان يتمثل بالملك جبريل، ولكنه لم يظهر إلا في المدينة. ومن المفيد أن يراجع، بشأن لغة كلب، الأغاني ٢٠:٢١.

[٢] في جغرافيته (طبعة de Goeje) ٢١٥.

[٣] كتاب المعارف (الطبعة المصرية) ١٩٣-١٩٤.

محتقراً (كالقين) أي الحدَّاد[1] وقد سها ابن رسته عن هذا الأمر، على ما يظهر، عندما نظّم أو نقل لائحة صناعه القرشيين. بيد أن هذا السهو يظهر أعجب منه في كتاب ابن قتيبة المتعصب للعرب المنادي، في (كتاب العرب) المشهور، بفضلهم على سائر الناس.

ومما لا شك فيه أن الأطباء، والجرَّاحين، وأطباء الأسنان كانوا كلهم من النصارى في مكة. وكان لمهاراتهم فضل يُذكر في مجتمع بدوي، سريع الهيجان، عرضة للغزو على مدى أيامه. وقد نسب المؤرخون لهؤلاء الجراحين عمليات لا بأس بدقتها. من ذلك أنهم كانوا يبدلون بالأنوف المقطوعة [2] أنوفاً من الذهب أو الفضة[3]، وكانوا يذهّبون الأضراس ويثبتون المتقلقل منها بالخيوط الذهبية[4].

---

[1] اطلب Chantre des Omiades, 172؛ الأغاني ٥:١٥٩؛ ٧:١٨٤، ديوان الأخطل ٢٢٢؛ الجاحظ: الحيوان ١:١٥٣.

[2] نرى، في تاريخ ذاك العصر، كثيراً من المدعوين (بالخطيم) أي صاحب الأنف المضروب، كقيس بن الخطيم الشاعر اليثربي؛ الأغاني ١٣:١٠٣؛ اسد الغابة ٣:١٠٢، ١٠٧؛ ومنهم من دُعي (بالأسلت) أي ذي الأنف المقطوع؛ ابن دريد: الاشتقاق ٢٦٦؛ أبو زيد: النوادر (طبعة بيروت) ١١٤؛ Lammens, La Mecque, 210, 217, 302.

[3] نرى مناقشة لطيفة بهذا المعنى في ابن الأثير: النهاية ٣: ١٩٩؛ ٥:٢٠٥-٢٠٦؛ الترمذي: الصحيح (طبعة الهند) ٢:٢٠٩؛ البغوي: المصابيح ٢:٨٥؛ اسد الغابة ٢:٥١، ١٩٢، ٤٠٠؛ ابن حنبل: المسند ٤:٣٤٢، ٥:٣٣.

[4] كان النساء أحياناً، في عراكهن، يكسر بعضهن أسنان البعض الآخر؛ أسد الغابة ٥:٤٥٢.

ولما كانت مكة مدينة تجارية ووسطاً اقتصادياً مهماً، كان لابد من الكتّاب والحسبة. وهو أمر لم يتنبه له التفسير القرآني عندما فسّر لفظة (أمي) بجاهل القراءة والكتابة. ومن المعروف أن أسرى بدر من القرشيين تحوّلوا إلى معلمين يدرّسون أبناء الأنصار . مزارعي يثرب . المنتصرين عليهم[1]. فكان جميعهم . حتى الفقراء منهم . يتمكنون من القيام بهذه المهنة الجديدة. كل هذا يدل على أن الكتابة كانت رائجة، إن لم نقل واسعة الانتشار في مكة. بيد أن مؤرخي العصر لا يذكرون اسم معلم واحد من القرشيين. ذلك أن القراءة والكتابة كان يعلمهما الأجانب وحدهم. وكان من رغبة القرشيين في التعلم أن بعضهم كان يقصد المعلمين حتى مدينة الحيرة النصرانية[2]. ولنشر أخيراً إلى وجود جبانة خاصة بالنصارى في مكة[3]، وهذا دليل جديد على وجود مجتمع نصراني في عاصمة القرشيين.

ولننتقل إلى عنصر ثانٍ من عناصر السكان. فنرى أن عدد النساء كان وافراً في البيوتات القرشية؛ذلك أن السياسة العامة، والحاجة إلى محالفة أسياد القبائل البدوية، كانت تدفع رجالات قريش إلى الإكثار من

---

[1] ابن سعد: الطبقات ٢:١٤، وقد يكون في ذلك حملةً أنصارية موجهة إلى القرشيين، ولا يخفى ما كان يحيط بمهنة معلم الأولاد من الأزدراء في القرن الأول للهجرة (راجع Mo'awia, 359-361).

[2] ابن قتيبة: المعارف (الطبعة المصرية) ١٨٧ .

[3] الأزرقي ص ٥٠١ في Cbronikeu der stadt Mekka de Wustenfeld.

الزواج[١]. وهناك عادة أخرى كانت تدفع المجير أو المحالف إلى التزوّج بأرملة (الحليف) المتوفى[٢]، فيؤمن لها حياتها.

ذكرنا، في إحدى حواشي البحث السابق، رواية تمثيلية لهنري دي بورنيه. وقد جاء فيها، في خصام بين حفصة بنت عمر وضرّتها عائشة بنت أبي بكر[٣]، هذا القول تحمل به حفصة على عائشة:

Et puis un pen cbrelienne au foud, comme sa micre, Lisant dans l'Evangile une Journec cntiere[4].

فتكون والدة عائشة. أم رومان. والحالة هذه، من نساء النصارى. قد يكون المؤلف استند، في هذا الاكتشاف، إلى اسم (رومان) الذي خاله مصحفاً. على ما يظهر. عن اسم (رومانوس) المسيحي[٥]. وفي الواقع أن بني رومان كانوا جزءاً من قبيلة طي النصرانية. ولا سند للاشتقاق اللغوي الخيالي الذي يذكره ابن دريد[٦] بيد أنه ليس لنا في ترجمة امرأة أبي بكر ما يشير، وأن إشارة ضئيلة، إلى أصل نصراني[٧].

---

[١] كان لصفوان بن أمية ست نساء، عندما أسلم (أسد الغابة ٥:٠١٥)

[٢] ابن سعد: الطبقات ٥:١٨٦؛ ابن قتيبة: المعارف ٥٧.

[٣] هذا في الرواية أما في الواقع فقد كانت حفصة على وفاق تام مع عائشة ضد سائر نساء النبي (راجع Triumvirat, p. 121).

[4] H.de Bornier, Mobomet, II, 4

[٥] يذكر الهمداني (صفة جزيرة العرب، ١٨٠) رجلاً باسم ابن رومانوس من قبيلة كلب، وأكثريتها نصرانية راجع Jos, Horovitz, op, cit, 128.

[٦] ابن دريد: الاشتقاق ٢٢٨.

[٧] أسد الغابة ٥:٥٨٣؛ وفي موضع آخر (أسد الغابة ٥:١٠٧) ذكر لعدد من نساء النصارى في اليمن، تزوّجهن رجال مسلمين في مصر، بعد الفتح بقليل.

ولكن مهما يكن من أمر فإن (الأحلاف) النصارى لم يكونوا بالعدد النزر في بيوتات القرشيين في مكة.

ولم يكن الخلفاء عثمان ومعاوية ويزيد ليندموا على زواجهم بنصرانيات من بني كلب[1] ولعلهم ذكروا، في ذلك، مثل شيخهم أبي سفيان في تزوجه نصرانية[2]، وكان النبي نفسه، قبل أن يختار عثمان صهراً له[3]، قد زف إحدى بناته إلى عُتبة ابن أبي لهب. ولكن هذا الزواج لم ينتج سوى مرارة مؤلمة أثرت بالنبي طويلاً. ولعل من آثارها تلك الآيات الشديدة التي خلدت بالخزي ذكرى أبي لهب. وقد ظل الخصام غامض الأسباب، صعب الشرح، على رغم ما حاوله المفسرون من شروح وتآويل[4]. أما ما يظهر جلياً فهو أن عُتبة طلق ابنة محمد عندما اعتنق النصرانية. وأدلى إليه بهذا التصريح الجريء: (يا محمد أشهد أني نصراني قد كفرت بربّك، وطلّقت ابنتك)[5] هذا ما نقله صاحب

---

[1] راجع كتابنا في Mo'awia, 308-312 Yazid.

[2] شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ١٢٠ (الطبعة المصرية). يقال عن هذا الزواج إنه (غرق في الخمر ويقال بل غرق في البحر) (البلاذري: الأنساب "مخطوطة باريس" ٢٨٤ وجه) وهل يكون لهذا (الفرق في البحر) من أثر في تكوين أسطورة الهجرة إلى الحبشة، وراجع، في نصرانيته، السيرة الحلبية ١:٣٥٩، أما (الغرق في الخمر) فقد قيل عن الأسود وحشي أنه مات غرقاً في الخمر (ابن الأثير ٣:١٥٩).

[3] وقد بلغ من حب النبي لعثمان أنه قال: (لو كان لي أربعون بنتاً زوّجت عثمان واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى منهن واحدة) (الذهبي: ميزان الاعتدال ٣:٢٣٧).

[4] راجع أسد الغابة ٥:٤٥٦.

[5] الأغاني ١٥:٢؛ راجع Fatima 3.

الأغاني. وقد يكون في الحكاية تحامل على أسرة أبي لهب[١]. ولا أعرف سنداً آخر لنصرانية عُتبة. ثم إن زواج بنات محمد، بل عددهن، عرضة لكثير من الغموض والصعوبات، وقد حاولنا مناقشة شيء من ذلك في بحثنا عن فاطمة وبنات محمد[٢]، فليعد إليه من يشاء.

على أن هناك رجلاً قرشياً لم يشك أحد بنصرانيته، هو عثمان بن الحُويرث الاسدي. إنما يتفق المؤرخون المكيون على جعله يدين بالنصرانية في أرض الإمبراطورية البيزنطية[٣]. ولا عجب، فقد عرفنا نزعتهم إلى إقصاء كل من دان بالنصرانية من كبار قريش، حتى ليجعلون قيصر بيزنطية نفسه يهتم بهؤلاء المتنصرين[٤]. وهكذا خرّجوا نصرانية زوجي سودة وأم حبيبة اللتين تزوّجهما النبي بعد ذلك، فقالوا إن زوجيهما الأولين تنصرا في أرض الحبشة[٥]. أما عثمان بن الحُويرث فالحق أنه دان بالنصرانية قبل رحيله إلى بلاد بيزنطية، ولا شك في أن

---

[١] وكثيراً ما تحيّز صاحب الأغاني إلى العلويين، على خلاف ما يزعم نولدكه؛ راجع الذهبي: ميزان الاعتدال ٢ :٢٣٣، مستغرباً هذه النزعة في رجل أموي الأصل.

[٢] Fatima, 2-12.

[٣] اليعقوبي: تاريخه ١ :٢٩٨.

[٤] راجع الأغاني ١٣ :١١٢ وقابل بحادثة مضحكة في أسد الغابة ٤ :١٤٣، وهي مستوحاة من أسطورة أمرىء القيس.

[٥] البلاذري: الأنساب ١٢٣ وجه، ١٣٧ قفا؛ ابن هشام: السيرة ١٤٣-١٤٤؛ اسد الغابة ٣ :١٣١، ٥ :٤٥٧، ٥٧٣؛ Caetani, studi, III, 14-15 ؛ ابن الأثير: النهاية ٢ :٣٤٨.

صفته النصرانية دفعته إلى تلك الرحلة ـ لاجئاً ـ في تحقيق أهدافه، إلى القيصر، ملاذ نصارى الشرق والمحامي عنهم[1].

ولنا ما يؤيد أن تجار الشام النصارى كانوا يدعون علناً، في يثرب، إلى إيمانهم، ولا أحد يمنعهم أو يقلقهم في دعوتهم[2]، وليس ما يدلّ على أن وطنيي ابن جدعان وأبي أُحيحة كانوا أقل تساهلاً من أنصار المدينة. فقد رأينا النبي يختلف إلى أماكن النصارى علناً، ويباحثهم دون أن يعترضه معترض. هذا إذا استثنينا أولئك الذين أشرنا إليهم، مستندين إلى القرآن، والذين كانوا ينتقدون صاحب الدين الجديد تقليده، وإيراده (الأساطير) القديمة المعروفة، ونقله عن الأجانب آيات قرآنه[3]. وقد كان من هؤلاء من يلفت نظر الموّحدين فيصرفهم عن الانخداع بأقوال (الغلام) أو (الفتى) الداعية الجديد[4]، مؤيدين سمو العقائد الإنجيلية على ما كان يأتي به من أقوال، صائحين بعدَّاس: (ويحك يا عدَّاس، لا يصرفنَّك عن دينك. فإن دينك خيرٌ من دينه)[5]. كل هذا يجري على غير اهتمام من السراة القرشيين، أبناء تلك الاريستوقراطية المالية الممثلة

---

(1) في كتابنا عن (مكة قبيل الهجرة) درسنا بتفصيل هذا الأمر، وأبنَّا ما كان في جزيرة العرب من تضارب بين السلطات الأجنبية في سبيل التأثير وبسط النفوذ.

(2) أسد الغابة ٥:١٧٣؛ الواحدي: أسباب النزول ٥٨.

(3) القرآن ١٦ [النحل] ١٠٥؛ ٢٥ [الفرقان] ٥... وغيرها من الآيات المذكورة في أول هذا المقال؛ البلاذري: الأنساب ٦٤ وجه.

(4) راجع بحثنا Cbrouelogie.

(5) ابن هشام: السيرة ٢٨٠؛ اسد الغابة ٣:٣٩٠.

(بالملأ) أو (دار الندوة) التي لم تتأثر بهذه المشاحنات، كما أنها لم ترَ بأساً بدعوات القسس ومواعظهم، زمن الأسواق المنعقدة حول مدينتهم.

وهناك أسدي قُرشي آخر لا يتردّد المؤرخون لحظة في إقرار نصرانيته، ولا يحاولون – كما حاولوا بشأن الأسدي عثمان بن الحويرث – أن يجعلوه متنصراً خارج الجزيرة العربية. هو ورقة بن نوفل الشهير[1]، نسيب خديجة، أولى نساء النبي، ذلك أنهم كانوا بحاجة إلى هذه الصراحة في إقرار نصرانيته، موافقةً للدور المهم الذي اختاروه لتمثيله. فهو يمثل، لدى الإسلام الناشىء، العالم النصراني بأجمعه؛ فيقرّ بصحة رسالة محمد[2]، باسم أولئك (الذين أُوتوا نصيباً من العلم) على لغة القرآن[3]. ولم يكن من اللائق أن يُعهد بهذا الدور المهم في (دلائل النبوة) إلى أحد المبتدئين بالنصرانية، أو إلى من تكون نصرانيتهم عرضةً للشك والتردد. وهكذا أصبح ورقة يمثل . في عراقة نصرانيته . جمهور أهل الكتاب. أما لماذا فضّله مؤرّخو السيرة على رفيقه المعروف (الحنيف) زيد بن عمرو، ولطالما ترددوا بين الرجلين في نسبة الأشعار الحنفية المزعومة[4]، فهو ما لا يتسع بنا المجال لمناقشته[5]. ولا يخفى أن التعابير (نصيب من العلم)، و (نصيب من الكتاب) من خصائص

---

[1] أطلب ما نُسب إليه من شعر مهلهل مضطرب Noeldeke, Beitraege, 81-83.

[2] أسد الغابة ٣:٣٠٧.

[3] أو (أُوتو العلم) أو (أوتوا نصيباً من الكتاب) (القرآن ٣ [آل عمران] ٢٢؛ ٤[النساء] ٤٧، ٥٤؛ ٢٢ [الحج] ٥٣ ...).

[4] السمهودي: الوفاء ٢:٣٨٢؛ واطلب Yazid, 290-291.

[5] وقد يكون من أسباب هذا التفضيل القرابة بين خديجة وورقة.

السور المدنية، وإذا فهي ترقى إلى ما بعد الهجرة. وحينئذٍ أخذ النبي، في احتكاكه باليهود، يعلن الفرق بين العهد القديم والعهد الجديد، وكلاهما (نصيب من الكتاب) الذي يكمّله القرآن، في نظره.

وفي ما سبق، كانت خديجة – التي جعلها الله (وزير صدق) إلى جنب محمد في الحالات الصعبة – قد سألت عن الأمر نفسه العبد النصراني عدَّاساً[1]. على أن مؤرخي السيرة خانتهم الذاكرة – أو خانت عدَّاساً نفسه – فزعموا، عن لسانه، أنه لم يعرف النبي إلا في الطائف، بعد أن مرّ على الحادث الأول نحو عشر سنوات. ولا يخفى أن عدَّاساً كان من عبيد الأمويين، وكان مقيماً في مكة منذ السنين الطوال. فكيف لم يرَ محمداً، وقد لهجت به وبتعاليمه مكة بكاملها، على قول مؤرخي السيرة أنفسهم؟ وعندما سمع عدَّاس محمداً . في الطائف . يذكر اسم يونس، صاح به بداهةً: (وما يدريك ما يونس؟)[2] ،وهذا دليل على ندور الأسماء الكتابية بين العرب الجاهليين، حتى اسم إسماعيل جدّهم[3]، وقد عرف محمد قصّته متأخراً، في أثناء حديثه مع الموّحدين[4]. ومهما يكن من صحة تدخل عدَّاس – وهو عبد لا يمثل إلا فئة منحطة من البشر – فإنها لم تكفِ المؤرخين الرسميين، فاتجهوا

---

[1] البلاذري: الأنساب ٦٦ قفا، ٦٧ وجه.

[2] أسد الغابة ٣: ٣٩٠ وفيه أن النبي ذكر اسم يحيى مؤكداً أنه لم يُسمَّ به أحد قبل ذاك (في البلاد العربية)؛ أسد الغابة ٥: ١٠٠.

[3] راجع أسد الغابة ٤: ٣١١، أما في المدينة، ذاك الوسط اليهودي، فيُذكر عدد من المسمين يحيى، أسد الغابة ٥: ٩٩-١٠١.

[4] أطلب Snoucke Hurgronje, Het Mekkaanscbe Feest.

جهة ورقة يضخّمون شخصيته، ويطوّلون في أسطورته[1]. وإذا بمجاميع الأحاديث القانونية تطلق عليه لقب (القسّ)، وتظهره بمظهر العالم المتبحّر المطلع على دقائق اللاهوت والآداب المتعلقة بالنصرانية والعلوم الكتابية فتقول: (استحكم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب)[2] ،بل إنه كان باستطاعته أن يقرأ الكتب بلغتها الأصلية، إذ كان متضلعاً من العبرية نفسها[3]. وهكذا نراه يستكمل معدَّات النقد الكتابي من لاهوت، وتفسير، ومعرفة باللغات والآداب الكتابية؛ فهو على أتم ما يمكن اضطلاعاً بأصول الوحي، ومن ثمَّ ضمانةً لصحة ما يرى في بعثة محمد. ولم يكن من المعقول أن نرى هذه الثقافة الدينية في عامة القرشيين، حتى في الحنفاء منهم كزيد بن عمرو، بعد أن جعلتهم السيرة كلهم (أُميين)، فوجب إذاً أن يكون ورقة من النصارى، بل من العريقين بالنصرانية، ولم يكن بالإمكان أن يحلّ محله أحد أولئك المثقفين بالديانة اليهودية، لفرط ما اظهروا من الحقد على النبي، والنفور من تعاليمه الجديدة، بشهادة القرآن نفسه.

---

[1] ويقرّ ابن الأثير (النهاية ١:٣٦٦) أن هذه الأسطورة مضطربة. راجع نسبه المتقلقل في أسد الغابة ٥:٨٨، وفيه ذكر لرجال عدةباسم ورقة بن نوفل، وكلهم من غير المشهورين. بل إن من الرواة من يزعم أن ورقة كان أعمى زمن التنزيل الأول (البخاري (طبعة استانبول) ١:٣) ولعلهم أرادوا بذلك أن يسوغوا تردّده في الالتحاق بالنبي. أطلب Caetani, Annali, I, 235, 238, 360.

[2] البخاري: الصحيح (طبعة استانبول) ١:٣؛ ابن هشام: السيرة ٣٤٣؛ البلاذري: الأنساب ٦ وجه.

[3] اسد الغابة ٥:٤٣٦، وقابل بما في الصحيح في الصفحات المذكورة آنفا.

ولم يكن ورقة من عامة النصارى، أولئك التجار والمهنة الذين رأيناهم[١] يعيشون أحراراً في المجتمع المكي، ولكنهم يظلون أجانب عن السلطة والسيادة؛ لا يسمّون إلا (بالعلوج) ولا يتمكن الكثير منهم من التعبير بالعربية الفصحى[٢]. بل كان من قريش (صليبة) من رجال الارستوقراطية الذين لهم مركزهم في المجتمع الأعلى، في (الملأ) بفضل كرم محتدهم وشرف حسبهم[٣]. كان منهم عثمان بن الحويرث، وكان منهم ورقة هذا وكلاهما من نسل قُصي، جدّ الأسر الارستوقراطية في مكة. يظهر ذلك أيضاً من أخبار (السيرة)، وفيها يكثر ورود اسم ورقة، يذكره جمّاع الأخبار كلما أمكنهم ذلك، معظمين شأنه في أوائل زمن (الوحي) أو بعثة محمد. أما عثمان فقد نفعته نصرانيته في الإلتجاء إلى قيصر، حتى إنه كاد يتسلط مطلقاً على مقدرّات مدينته، لولا ما اتصف به وطنّيوه المكيّون من نزعة أساس إلى الديمقراطية البالغة حدّ الفوضى أحياناً. هذه النزعة وحدها، لا نصرانية ابن الحويرث، هي التي عملت على إخفاق الرجل في مقاصده[٤].

---

[١] ولنضف إليهم تاجراً كان من موالي الهاشميين ذكره صاحب أسد الغابة ٣:٣٩٠-٣٩١؛ وزوجي سودة وأم حبيبة اللتين تزوجها النبي بعد ذلك.

[٢] راجع ما في القرآن ١٦ [النحل] ١٠٥.

[٣] ولم ينل الحنيف زيد بن عمرو مثل هذا الشرف؛ لأنه كان من فرع بني عدي. وأنظر كيف يتخلص المحدّثون من زيد ورفيقه ورقة عندما تنتهي حاجتهم إليهما-Yazid, 290-290.

[٤] راجع كتابنا Berceau, I, 317 ثم La Mccque, 270.

ومن المفيد أن نذكر أن أبا سفيان ـ وهو المعروف بسموّ نظره ورفعة مركزه بين قومه حتى كان (لا يسقط له رأي في الجاهلية) ـ لم يتراجع عن اختيار أصهرة وأحماء من النصارى. ولقد تبعه محمد نفسه في هذا السبيل، كما قدّمنا. أما ما يلاحظه ولهوسن من أن (حنفاء) الحجاز يظهرون عطفاً على النصرانية وميلاً إليها أكثر مما يبدون بشأن اليهود[1]، فلا أرى مندوحة من القول بعدم قيمته العلمية. لأن كل ما عندنا من أسانيد تقليدية عن (الحنفاء) و (الحنيفية) متفرّع رأساً من القرآن[2]. والحال أن النصارى، في هذا الكتاب، يظهرون بمظهر أفضل بكثير من مظهر اليهود، أولئك (المغضوب عليهم)[3] ولم يكن بوسع كتب (الصحيح) إلا أن تؤيد هذا التفضيل الذي يوليه (الحنفاء) الدين النصراني. ولا شكّ في أننا نجتنب كثيراً من الأخطاء والأوهام، لو انتبهنا دائماً لأصل (السيرة) الجوهري، ألا وهو القرآن.

كان بنو أسد أقرب الأسر القرشية إلى النصرانية والدائنين بها، فإليهم كان ينتسب من رأينا من النصارى في هيأة المجلس الأعلى، أو (الملأ) الساهر على مقدّرات مكة. وكان غير واحد من مواليهم

---

[1] Reste, 234 – وهناك اسم (حنة) أُطلق على اخت لهاشم، وابنةٍ له أيضاً (اليعقوبي: التاريخ ١ :٣٧٩، ٣٨٣) ويُذكر في مكة رجل من الموّحدين (الكتاب نفسه ٢ :٦، ١٤).

[2] راجع بحثنا Caetani, Annali, I, 182...., Qoran et Tradition.

[3] كما في السورة الأولى (الفاتحة) من القرآن. ولم يظهر النصارى نحو المسلمين شيئاً من بغض اليهود وحقدهم. وقد جاء في السورة ٥ [المائدة] ٨٥: (لتجدن أشدّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود، والذين اشركوا. ولتجدن أقربهم مودّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون).

يشاطرهم في هذه المعتقدات. و (مولى القوم منهم) بل (من أنفسهم) كما يقول المثل القديم[1]. وكثيراً ما طُبّق هذا المثل حتى بشأن العقائد الدينية. وفوق ذلك، نرى الأسديين - وقد ظهروا أقرب من سائر وطنييهم إلى التأثر بالمؤثرات الدينية - يمنحون لقب (الأحلاف)[2] لعددٍ من نصارى غسان[3]. وإذا ذكرنا أن الأجانب عن مكة كانوا ينزلون غالباً في الضواحي والأحياء البعيدة، في (ظواهر) المدينة. كما كان يقال. أو في (الشِعاب) أو الأودية المنفرجة المستديرة بالبلدة. فينصبون فيها خيامهم[4] ، من أغصان أو من قماش، حول الكهوف والمغارات، و(السقائف) التي كان يتقلب فيها. بعضهم فوق بعض. رجال السودان، والعبيد، وباعة الخمر، وبنات اللهو[5]، والكثير من بدو تهامة، وأبناء الأزد الجبليين[6]، من أولئك الذين كانوا ينتظرون فرصةً سانحة ليؤجروا سراة مكة قوة سواعدهم، ونصال سيوفهم. وإذا عرفنا أن الغساسنة النصارى، (أحلاف) الأسديين، كانوا ينزلون في (البطحاء) أو (الأباطح) أي في قلب المدينة، منزل الأسر الكريمة، وأنهم كانوا

---

[1] أسد الغابة ٥:٤٣٥.

[2] الأزرقي (Wustenfeld) ٤٦٦.

[3] ورد في أسد الغابة ٥:١٥، ذكر صحابي غساني يكنى بأبي مريم، وإذاً فهو نصراني. ولكن المصدر لا يذكر هل صحب النبي في مكة أم بعد الهجرة.

[4] وكثيراً ما ذكرت (خيام التجار) أسد الغابة ١:٣٨١؛ ابن هشام: السيرة ٧٧١.

[5] اسد الغابة ٥:٣٨٩، وقابل بهذا النص في ما خص المدينة: (سقيفة طويلة فيها بغايا) (السمهودي: الوفاء ١:١١٣).

[6] وكان يسكنها أيضاً القرشيين من الطبقة الدنيا في المجتمع، وهم الذين يدعون (قريش الظواهر) أو (قريش الضواحي) راجع ابن الأثير: النهاية ٣:٤٤، ٥٩.

يقيمون في جوار الكعبة، في أقدس بقعة من مكة[1]، أدركنا أي تأثير كان لهم، وبأية عناية كان يحيطهم أبناء مكة، ولا شك في أن نفوذ الدولة الغسانية كان يؤثر في أرباب المتاجر المكية، فيدركون ما يستفيدونه من محاسنة رعايا آل جفنة[2]. وإن يكن الشعراء يبالغون عندما يلقبون هؤلاء الأمراء (بملوك الشام) فليس من شك في أنهم كانوا ذوي تأثير بليغ بسهرهم على الحدود البيزنطية، وحفظهم للدروب النافذة إلى بلاد الروم، فمراقبتهم جميع القوافل في الذهاب والإياب. وهو أمر لم يكن ليخفى على دهاء القرشيين، أرباب الأمر والنهي في تلك الجمهورية التجارية.

ولم يكن في ذاك العهد أثر لفكرة النجس الناتج من وجود رجل غريب الدين في منطقة موقوفة على دين آخر. إنما كان العرب على كثير من التساهل، بل على كثير من عدم الاهتمام بكل ما من شأنه احتكار الفكرة الوطنية القومية أو العاطفة الدينية[3]. ولا يمكن أن يُدل دلالة واضحة على التعصب الجنسي والديني بين العرب، إلا بعد انتشار مذاهب التفسير القرآني[4]، وعمل أئمة التحليل والتحريم المثقفين على

---

[1] مسجد الحرام، الأزرقي ٤٥٨، ٤٦٠. وكان المجال ضيقاً حتى أن البيوت كانت تزدحم بعضها فوق بعض وتقترب شيئاً فشيئاً، فتضيق (فناء) الكعبة.

[2] كانوا في الحجاز يهابون هذه الدولة؛ ابن الأثير: النهاية ٤ :١٥٨؛ البخاري: الصحيح (طبعة استانبول) ٧ :٢٧؛ ابن هشام: السيرة ٩١١.

[3] وكذلك القول عن بغض الأجنبي، بالمعنى السياسي، فهو لا يرقى إلى ما قبل زمن الخلافة. راجع Yazid, 304.

[4] القرآن ٩ [التوبة] ٣٨؛ وراجع Mo'awia, 401.

طريقة أرباب التلمود. أما في ذاك العهد القديم فلم يكن من النادر أن نرى من (أحلاف) أبناء قُصي من يدخلون دار الندوة[1]، بوصفهم غرباء عن قريش[2]، فيتمتعون بحقوق القرشيين ويجلسون إلى جنب شيوخ مكة. وفي كل ذلك من رحابة الصدر، وسعة العقل، والتساهل الديني في وطنيي محمد المشركين ما ظهر شيء من أثره في بعض السور المكية القديمة.

وكان من أعمال القرشيين أنهم أسرعوا إلى استقبال الموّحدين الهاربين من المدينة. ففتحوا مداخل جيشهم. في وقعة أُحُد. أمام أبي عامر الراهب ورفاقه من نصارى يثرب[3]. ولا يخفى ما في هذه المعلومات من دلالة على الميل إلى النصارى سواءٌ أكانوا أجانب أم قرشيين. فضلا عن أن الإنجيل لا يفرض على أتباعه شيئاً من التميز من وطنييهم أو الانفصال عنهم في طرق معيشتهم، كما نرى ذلك عند اليهود المقيدين بأحكام التلمود الصارمة في ما يخص الطهارة والنجاسة، والمزهوّين بسموّهم على (الأُميين) أبناء القبائل غير اليهودية التي كانوا يعدّونها أجنبية عنهم. فلا يرون حقاً عليهم لأحد أفرادها، على نحو ما جاء عنهم في القرآن: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

---

[1] الأزرقي ٤٦٥، وهناك ذكر لبعض أحلاف قريش الأجانب يصبح لهم حقوق القرشيين أنفسهم؛ الجاحظ: الرسائل ٦. وقد درسنا هذا الأمر في كتابنا Taif, 121.

[2] ومنهم غساسنة من (أحلاف) الأمويين (الأزرقي ٤٥٨، ٤٦٠).

[3] ابن هشام: السيرة ٥٦١-٥٦٣.

﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [1]. وقد يكرهون على تأدية هذا الحق للأمي فيؤدونه ما دام صاحبه قوياً على المطالبة به. وهذا قول القرآن: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [2]. وكم كان الفرق جلياً بين هؤلاء المقيدين بأحكام التلمود الصارمة، المنفصلين عن جمهور العرب، المترفعين عليهم بتشريعهم الديني والمدني الخاص، الفائزين، مقابل ذلك، بازدراء البدو هواة التساهل والانفلات من القيود، وبين أولئك النصارى الذين لم يكن دينهم يفرق معيشتهم عن معيشة سائر العرب، فلا يصرفهم عن حياة القبيلة العامة، ولا يفرض عليهم تشريعاً خاصاً مختلفاً عن تشريع الجدّ قُصي، ومن ثم لا يدفعهم إلى جحود شيء من القومية العربية، كما كان الحال مع اليهود[3].

بيد أن هناك مشكلة دقيقة قد تتعارض ظاهراً وما بسطناه من تساهل العرب وميلهم عن التعصب في ما خصّ الشؤون الدينية. ألا وهي تلك المقاومة العنيفة التي قاوم بها القرشيون ابن وطنهم محمداً. فكيف التوفيق بين الأمرين؟ ذلك أن الداعية الجديد لم يختص بدعوة دينية محضة، بل كان يرمي، كما يقول مناوئوه، إلى أهداف اجتماعية كان

---

[1] القرآن ٣ [آل عمران] ٦٩.

[2] القرآن ٣ [آل عمران] ٦٨.

[3] راجع بحثنا Les Juifs a la Mecque.

من شأنها قلقلة النظام السائد إذ ذاك و(تفريق الجماعة). بحسب قولهم. [1]. ولم تكن تهمة كهذه أُلصقت بأحد من النصارى، ولا من دعاة النصرانية، قبل ذاك العهد. بل إن كثيراً من النصارى كانوا، في تساهلهم العجيب، يوفقون بين عقائدهم التوحيدية، وإكرام الكعبة وغيرها من أماكن العبادة الوثنية[2]. وهؤلاء شعراؤهم يحلفون بالله، وباللات، وبالأنصاب، وبالبيت الحرام، دون تردد[3]. وهذه جماهيرهم تحج إلى مكة ومِنى وسائر المواسم والمناسك. وهنا لابد من درس هاتين اللفظتين وإقرار ما بينهما من صلة. فإن (الموسم) كان يشمل أعمال السوق التجارية خاصة، بينما كان (المنسك) يختص بشؤون العبادة، وكان الأمران يتوافقان ويجريان معاً كما في عكاظ[4] ، وذي المجاز، ومِنى. ولم يكن حضور الموسم يفرض ضرورة الاشتراك في العبادة. ولا شك في أن المصالح التجارية جرّت نصارى مكة، مقيمين ومارين، إلى عرفة ومِنى. ولكن ليس لنا ما يدلّ على أنهم كانوا يشتركون في الذبائح الدينية، أو في الطواف حول الحجر المؤله،في (مشاعر) تهامة

---

[1] ابن هشام: السيرة ٢٢٥؛ راجع Mahomet fut- il sincere, 128.

[2] اطلب -snouck Hurgronje, welhausen, reste, 73, Mo'uwia, 403 404 feest, 28, n.2 وكان نصارى العرب يحملون صلباناً من الذهب؛ ابن الأثير: النهاية ٤:١٩٤، وراجع Chantre des omiades.

[3] كالمتلمس، وطرفة في شعراء النصرانية ٣١٩، واطلب في Mo'awia, 456 ملاحظتنا بشأن دين الشعراء الجاهليين.

[4] كان فيها منسك أيضاً كما في سائر الأسواق الجاهلية. وكان من مرتادي عكاظ الغساسنة (ابن سعد: الطبقات ١:١٤٥).

(ومساجدها)، وفي (العُمرة) المكية. ومهما يكن من أمر فإن تحريم الاشتراك في القُدسيات لم يكن أُقر بعد بالدقة من الاهتمام بهذا التحريم. ولا يخفى أنهم كانوا ينتمون إلى كثيرٍ من الفِرق والبِدَع المنفصلة المتفرّعة عن المذاهب النصرانية الشرقية[1] حتى لا نعرف بينهم جماعة كاثوليكية صحيحة المعتقد. وكانوا يضيفون إلى تفرقهم المذهبي تبدّدهم في أطراف الجزيرة، في أماكن بعيدة كلها عن المركز الكنسي الثابت، وعن النظام الاكليريكي المقرر، ومن ثم فقد كان من الصعب على رجال الدين أن يراقبوا سلامة العقائد الإيمانية، ويسهروا على تطبيق القوانين البيعية، وهو ما يشرح نوعاً ما عدم مقاومة النصارى للدين الجديد.

يظهر أن الكعبة قد ظلت . حتى عهد النبي . لا تنتمي إلى إله معروف، فلا تحمل أسماً خاصاً. أما ما ذكره ولهوسن من أنها كانت تنتمي إلى هُبَل - وهو إله شمالي الأصل لا يُذكر إلا في أنساب الكلبيين[2]- فلا سند له يقوى على النقد المعقول. ونحن لا نرى أثراً لهُبَل في اسم واحد من أعلام الأشخاص المضافة إلى أسماء الآلهة، خلافاً لما نتحققه بشأن المثلث القرشي: اللات، والعزّى، ومناة. ولهذا قد يكون في قول البلاذري ما يُرّجح نسبة الهيكل إلى مناة (أعظم

---

[1] يذكر الأغاني (١٦:٧٣) أن أحباش اليمن يدعون المسيح (نبيهم) وتشير السيرة الحلبية (١:١٤٤) إلى بدعة نصرانية اسمها (الإسرائيلية) كانت تؤله مريم العذراء.

[2] أسد الغابة ٤:٢٠٧.

أصنامهم عندهم)[1] على أننا لا نجزم بشيء. ولم تكن التحريات القديمة والأبحاث المستطيلة لتكشف عن العلم الخاص بالكعبة، وعن شخصية ذاك الإله الذي طالما دعاه العرب (برب البيت) و(رب مكة) فحلفوا به في شعرهم، حتى النصارى منهم، جامعين بينه وبين الله والصليب[2]. ومن الضروري أن ننتبه على ما قد يكون في هذه الإيمان من أعمال التحريف والتصحيف والوضع التي يقوم بها طلاب الغريب والنوادر،أو (علماء) الشعر في العصر العباسي[3]. ولا يبالغ الناقد مهما ينسب إلى هؤلاء من أعمال النحل والوضع والكذب في ذاك العصر الوافر الخصب بالآثار الأدبية، والقليل الأمانة والتحرّج. فلنحذر السير واثقين بين هذه المتاهات والمزالق، ولننتبه دائماً على غاية إقرار السيطرة القرشية التي أصبحت شيئاً فشيئاً عقيدةً قومية سامية فرضت إرادتها على مظاهر الحياة العقلية، مبررةً جميع الوسائط في سبيل الوصول إلى الهدف وتأسيس الخلافة العربية على أُسس أصيلة دينياً وتاريخياً[4]. هذه العقيدة دفعت جمّاع الأحاديث، ورواة الحوادث التاريخية، إلى أن جعلوا من الكعبة هكيلاً وطنياً يجمع حوله وفود العرب من أنحاء الجزيرة

---

(1) البلاذري: الأنساب ٢٣ وجه. خلافاً لما يزعم ابن سعد: الطبقات ٢:١٠٥، إذ ينسب الكعبة إلى عُزّى ناسياً أنه سبق فنسبها ( ص ٩٩ من المجلد نفسه) إلى هُبل.

(2) الأغاني ٢:٢٤؛ وقابل بما ,Welhausen, Reste, 87, Mo'awiu, 403-404 snouck Hurgronje, feest, 28, n.2، المشرق ١٦ [١٩١٣] ٦٧٨، ٦٧٩، وهناك بعض الصحابة يحلفون بآلهة القرشيين؛ أبو داود: السُنن ٢:٤٥؛ النسائي ٢:١٤٠.

(3) كما في شعراء النصرانية ٢٧٩.

(4) أطلب Yazid , 38.

كلها. فرأينا القبائل، حتى أبعدها منازل عن الحجاز، تأتي مكة في المواسم فتقر ضمنياً أو صراحة بسيادة أربابها من القرشيين. بل لم يتراجع المؤرخون عن أن يجعلوا بين تلك الوفود أبناء تغلب النصارى الذين يأتون من أقاصي ما بين النهرين[1]. ويستفيد الواضعون من هذا الزعم فيتخيلون فروضاً وتحريمات تُسن على التغلبيين، وهي في الحقيقة من آثار تسلُّط العباسيين وتعصبهم[2].

ومهما يكن من تساهل العرب وعدم تقيدهم بالدين الواحد، فإنه يصعب علينا أن نقدر ما دفع شاعراً نصرانياً كعدي بن زيد . الحيري الأصل . والملحق بديوان كسرى في المدائن، إلى القسم (برب مكة) إلى جنب الصليب[3]؛ لولا ما نعرف من هذه النزعة القومية العباسية، الرامية كما قدمنا، إلى إقرار سيادة الهيكل الوطني وشموله أنحاء الجزيرة العربية بكاملها.

في سبيل هذه الغاية، كان المحدّثون والمؤرّخون لا يتراجعون أمام شيء مهما يكن من عظم وضعه وفظاعة تزويره. وهذا ابن اسحق .

---

[1] في جغرافية ابن الفقيه، ١٩ ذكر لأحد ملوك الحيرة النصارى يقصد الكعبة، وهناك ملك لخمي آخر يرسل أبناء بكر وتغلب يجددون أتفاقهم في الكعبة (الأغاني ٩:١٧٨) وفي كل ذاك أثر النزعة نفسها. Mo'awia, 397-399, Berceau, I, 320, n.2.

[2] أطلب أقرار الذهبي: ميزان الاعتدال ٢:١١٢ .

[3] في قوله (الأغاني ٢:٣٤):

سعى الأعداء لا يألون شراً      عليك، وربِ مكة، والصليب

وأطلب أيضاً Yazid في المحل المذكور آنفا؛ وحماسة البحتري (طبعة شيخو) عدد ٣٣٧، ويمكن ألا يكون المذكور فيها إله مكة.

مؤلف سيرة الرسول. لم يكن يرى أثماً في (إعطائه الشعراء الأحاديث يقولون عليها الشعر)[1]. كما يذكر الذهبي الذي لم يتمالك أن حكم عليه حكماً صارماً، فقال:(وهو صالح الحديث ما له عندي ذنب إلا ما قد حشا في السيرة من الأشياء المنكرة المتقطعة والأشعار المكذوبة)[2] وكفى بذلك ذنباً شنيعاً، وقد تنبه ابن هشام. وهو أقرب إلى الأمانة من سالفه. على هذه المدسوسات، فأشار إلى بعضها بلطف، وأنكر البعض الآخر بصراحة. وكان من المفسرين من (ذكر أنه يحفظ خمسين ألف بيت من الشعر شواهد للقرآن) (كذا). فهل نأخذ بهذا القول، فنظهر أقل حذراً ونقداً للحقائق من الذهبي الذي، بعد أن ذكر الأمر، زاد بلهجة الشاك: (فالله أعلم)[3].

أما وقد وقفنا على هذه الآراء في (الأمانة الأدبية)، وعلى هذه الأساليب في تأدية الرسالة العلمية حتى في ما خص تاريخ النبي نفسه، فأصبح من السهل علينا أن نتصوّر ما كان يمكن أن يأتيه النحوّيون، واللغويون وطلاب الغريب والنوادر - وكلهم يتراشقون تهمة النحل والوضع والكذب من تصحيف وتحريف وتزوير في الآثار الشعرية القديمة، ومنها منظومات شعراء النصرانية.

فإن كان، والحالة هذه، من قيمة تاريخية لهذه الآثار، لشعر عديّ بن زيد وشعر زملائه النصارى في العصر الجاهلي، فإنها تدلنا بعض الدلالة

---

[1] الذهبي: ميزان الاعتدال ٢:٢٢.

[2] الذهبي: ميزان الاعتدال ٣:٢١.

[3] الذهبي: ميزان الاعتدال ٣:١٨.

على أن رب البيت، أو رب مكة، أو إله الكعبة غير المسمى، يجب أن يكون هو (الله)، ذاك الإله (الأكبر) الذي يحلف به كل شعراء الجاهلية على السواء. وإذاً فيكون النصارى منهم في حل من الإشراك، إذ كانوا يكتفون بالترفُّع عن القيام بالطقوس الوثنية[1].هذا موقف مؤرخي السيرة في اهتمامهم بشان (الحنفيين) وتخليصهم من الشِرك، على تعلقهم بديانة الكعبة. ولماذا لا يكون موقف النصارى مشابهاً له بالنظر إلى هيكل مكة نفسه؟.

هذا ولم يكن من إحراج في شأن الدين. فإن النظام القرشي، والساهرين على تنفيذه من أعضاء (الملأ)، كان من أبغض الأمور لديهم التدخل في معتقدات الناس أو الضغط على آراء الغير. ذلك أن العربي. إذا ما تُرك لطبيعته. كان أقرب ما يكون إلى التساهل، متخذاً شعاره، قبل زمن القرآن، أن (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)[2]، متوصلاً إلى قمة هذا التساهل بفضل نزعته الخاصة، وما فطر عليه من عدم مبالاة وقلة تقوى. فهو لم يبذل جهداً في هذا السبيل فلم يستحق فضلاً كذلك.

وكان فهمه (للدين) يخالف شيئاً ما نعرفه به اليوم. فلم يميز تمييزاً واضحاً بين الأخلاق والعادات وبين ما يدعوه (ديناً) مكتفياً من هذا

---

[1] أما في شعر الأخطل وأمثاله، فالإيمان لا تعدو القوالب التعبيرية، راجع Mo'awia, 404 والأغاني 173:7.

[2] القرآن ٢ [البقرة] ٢٥٧.

بصفته القومية أو القبلية الخاصة، عادّه إرثا أو (وصية)[1] عن جد القبيلة. ومن ثم فإن القيام بالعبادة في القبيلة الواحدة يمكن أن يشمل جميع أبنائها على السواء. ولا يخفى أن هذه (الوصية) الدينية المتداولة عن الجد الأول كانت تتضمن النصائح و (الوصايا) الخلقية أو الأدبية، غير مهتمة بالاعتبارات اللاهوتية.

وكان كل شيخ، إذا ما شعر بدنو أجله، استدعى أبناءه وحفدته – كما فعل يعقوب في العهد القديم – وذكرهم بوصية الأجداد، (عازماً) عليهم أو (مناشداً) إياهم، بألا يهملوا الوصية.

وهذا ما يفيدنا لماذا لم يكن للعربي هياكل سوية. إنما كان يكتفي عادةً بالخيمة أو المضرب، مجتمع الأسرة، وقد دعاه فيما بعد (مجلس القوم) أو (مسجد القوم)[2] تجتمع فيه شيوخ القبيلة ووجهاؤها. وفيه تقام شعائر ذاك الدين البسيطة. إلا في أحوال قليلة كان يوضع فيها الحجر المؤلّه في حلقة معروفة (بالمشعر الحرام) فيطوف حوله المؤمنون. وكان على من رغب في دخول ذاك (المسجد) أو (المجلس) أن يكون منتسباً إلى القبيلة إما بالدم أو بالولاء. وهكذا فإن العربي الجاهلي لم يتصور ديناً إنسانياً شاملاً، بل إنه لم يتصور ديناً إقليمياً يتجاوز حدود القبيلة المتفرّعة عن جد واحد.

---

[1] وقد درسنا هذه الوصية ومضامينها بشيء من التفصيل في بحثنا: (الثأر عند العرب وصفته الدينية) في المشرق ٣٣ [١٩٣٥] ١-٣١، ٤٣٨-٤٤٥، ٥٥٧-٥٧٤.

[2] راجع، بشان الترادف بين (مجلس) و (مسجد) بحثنا في Ziad ibn ABIBI, 89.

ولقد كان محمد، على الراجح، أول من فكر بين أبناء الجزيرة – في (عهده) بالمدينة، ثم في السور المستطيلة المتأخرة عن الهجرة – بأن يرمي إلى إقرار أخوة دينية أو وحدة إيمانية لا تستند إلى القرابة الدموية. فكّر بهذا المبدأ دون أن يستنتج كل ما فيه من نتائج خصبة، وذلك أن فكرة (الإسلام دين عالمي)[١] لم ترق إلى ما قبل عهد الخلافة، محتكة بها في الديانات التوحيدية من مبادىء مماثلة، مستفيدة من تقدم النظريات القومية المتسلطة التي كانت ترمي إلى إظهار العرب مظهر الشعب الخاص الذي اختاره الله وريثاً روحياً لأمم الأرض جمعاء[٢] القرآن من وعد صريح للعرب في القول عن الله: (وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض)[٣].ولم يكن معاصرو النبي، المتصفون، كسائر العرب، بضيق الأفق، والتقيُّد بالحدود القريبة، لتنبسط تصوراتهم إلى دين لا يكون قومياً بلدياً خاصاً ضمن التقاليد المتوارثة عن جدهم قصي، وكثيراً ما عبروا عن هذه التقاليد بقولهم: (دين قصي) ولا يخفى أن هذه المبادىء

---

[١] أطلب Snouck, Hurgronje, Mohammedanism, 45-46 ثم Taif, 8, 161.

[٢] وهو ما اشار إليه فولتير في روايته (محمد) قال:

Chaque people a son a brille sur la terre,
Par les lois, par les arts et surtour par la guerre.
Le temps de l'Arabie est a la fin venu.
Ce people genereux trop logtemps inconnu,
Laissait dans ses deserts ensevelir sa floire (Voltaire, Mahomet, II, 5).

[٣] القرآن ٦ [الأنعام] ١٦٥؛ ١٠ [يونس] ١٥، ٧٤؛ ٣٥ [الملائكة] ٣٧؛ وقابل بها في القرآن ٢ [البقرة] ١٣٧: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً).

تحول دون نشر الدعوة خارج البيئة القرشية. وإذاً فلم يكن لهم فضل كبير في التساهل، إذا ما قالوا لأحلافهم أو ضيوفهم من النصارى – وقد ذكرت الديانات – ما كان يقوله محمد نفسه، في بدء بعثته، لمخالفيه ومناقشيه: (لكم دينكم ولي ديني)[١].وها نحن نصل إلى ختام هذا البحث الطويل الممل. وكأننا لم نتقدم خطوة واحدة. فبعد أن استوضحنا النصوص المتفرقة في روايات (السيرة) وكتب (الصحيح) ومجاميع (المسند) و (السنن) واختلافاتها،وبعد أن قلبنا الوثائق المتعددة، والأسانيد المختلفة القيم، في التاريخ الإسلامي القديم، ترانا مضطرين إلى القول، خلافاً لزعم ولهوسن، أن الديانة النصرانية لم يكن بإمكانها أن تؤثر عقائدياً مهماً في الإسلام الناشىء، مدة العشر السنوات السابقة للهجرة. وهي المدة الوحيدة التي تهمنا. أما في الحقبة التالية للهجرة فليس من شك في أثر الدين اليهودي.لقد جهلنا كل شيء عن طفولة محمد ونشأته الأولى، إلا إشارات خفيفة وتلميحات في سورة (الضحى) يستنتج منها أنه كان يتيماً فقيراً[٢]. وكذلك نجهل هل قام هذا الناشىء اليتيم بأسفار ورحلات قادته إلى ما وراء الحدود العربية، وهل تيسر له، في أثناء هذه الرحلات – التي لا تنفي إمكانها الكثير الاحتمال[٣] – أن

---

[١] القرآن ١٠٩ [الكافرين] ٦.

[٢] القرآن ٩٣ [الضحى] ٦-٨: (ألم يجدك يتيماً فآوى. ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغني).

[٣] بالكاف الى الخاص، ومن هذا القبيل أيضاً تسميته بعض هؤلاء المماليك (المستخبرة) (ص٨٨ س٣) وهو اسم لم نقراه لأحد في تواريخ المماليك، مع أنه دعاهم غير مرة (المستخدمة والمستخدمين) (ص ٨٩، ١٠٦، ١٠٧) لتمييزهم من (المشتروات).

يتصل اتصالاً وثيقاً ببعض النصارى الشرقيين؟ بيد اننا استفدنا مما رأيناه عرضاً في تلك الشروح المتضخمة حول (السيرة) من أنه لم يكن من يُمثل النصرانية في مكة، قبل الهجرة، تمثيلاً لائقاً لا من حيث العدد، ولا من حيث المركز الاجتماعي والثقافة العقلية. فلم نتمكن، من خلال تلك المعلومات المتفرّقة، المضطربة حتى التناقض، المشوّهة بنزعات الرواة والمؤرخين، من أن نقف على أثر واحد لنظام كنسي مقرر، بل لجماعة نصرانية منظمة بين أولئك الباعة والتجار، روّاد متاجر مكة وأسواق تهامة.أما الأساقفة والرهبان والقسيسون والشمامسة وسائر رجال الأكليروس المذكورون في تلك الأحاديث فهم أقرب إلى أشخاص القصص والنوادر المخترعة في سبيل إيلاء الحادثة حياةً زائفة وقتية، منهم إلى الحقيقة التاريخية. ولا غاية من ذكرهم، في إعلاء مرتبتهم الرسمية وإقرارهم في مراتب النظام الاكليريكي، إلا تعديل شهاداتهم المزعومة بصحة الدين الجديد، وحقيقة بعثة محمد. فلنحذر استخدام هذه المواد الموضوعة في سبيل غاية متأخرة.وإذاً فلم يكن من جماعة نصرانية وطنية في مكة. إلا ما تحققناه من وجود بضعة نصارى لا يشك في شخصيتهم. وقد لا يتجاوزون العشرة من القرشيين الصميمين. يضاف إليهم بعض (الأحلاف) الملتحقين بالأسر المكية. على أن هناك كثيراً من العبيد، والمغامرين، والصعاليك، وباعة الخمر، والتجار، كانوا يمرون بمكة وجوارها فيقيمون مدة عقد الأسواق، أو يدخلون مأجورين في الجيش المكي، أو يقومون ببعض المهن البسيطة، وهم في الغالب الكنيسة الشرقية، حين كان الإمبراطور هرقل يحامي عن بدعة المشيئة الواحدة. وإنه لمن الصعب أن نتصور نصارى السوريين-

البيزنطيين يختلطون برفاق بلال، ووحشي، وأبي رويحة وسائر الأجلاف من الحبش الذين كانوا يأهلون أكواخ (الظواهر) وكهوفها وسقائفها.وليس في هذه البينات المختلطة الجاهلة، ما كان يفيد محمداً معلومات واضحة دقيقة عن النصرانية. يؤيد هذا ما نراه من الغموض والتردد في المعلومات المسيحية البادية في السور المكية. أما في يثرب فقد اصطدم بمقاومة أبناء إسرائيل. وسرعان ما شعر بعدم اتفاقه مع النصارى واليهود. فأخذ يرمي إلى إقرار دين إبراهيم، والد إسماعيل جدّ العرب، ومؤسس الكعبة، الذي (لم يكن يهودياً، ولا نصرانياً، بل حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين)[1] وهكذا، بعد أن انحط اليهود والنصارى، أبناء الشريعة القديمة والوحي السابق، يتجه الله نحو العرب (فيجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس)[2] وهكذا، كما بيّنا في بحث سابق[3]، يتحول الدين الموسوي - لا النصراني - إلى شريعة جديدة في سبيل حاجة العرب[4].

---

[1] القرآن ٢ [البقرة] ١٣٩، ١٣٤ - وفي ابن هشام: السيرة ٣٨٤، أن نصارى نجران كانوا يقولون بنصرانية إبراهيم. وهو أمر ضروري لشرح الآيات المذكورة آنفا.

[2] القرآن ٢ [البقرة] ١٣٧.

[3] راجع Adaplation, 186.

[4] أو كما يقول رينان (إلى نشرة عن اليهودية معالجة وفقاً لذوق العرب) Renan, Marc- Aurele, 693.